الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليـــــم العـــالي والبحـــث العلـــمي

جامعة أبي بكر بلقايد

ملحقة مغنية

قسم اللغة والأدب العربي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر الموسومة ب

الأنا والآخر في الرواية الجزائرية المعاصرة.
رواية المرث لرشيد بوجدرة.
نمودجا.

التخصص : دراسات أدبية

إعداد الطالب (ة)
سعاد عزيزي

لجنة المناقشة

- أ.د: عبد الرحمن بغداد.....رئيسا
- أ. د: سيدي محمد بن مالك.....ممتحنا
- أ.د: عبد القادر لصهب.....مشرفا(مقررا)

السنة الجامعية: 2015 / 2016

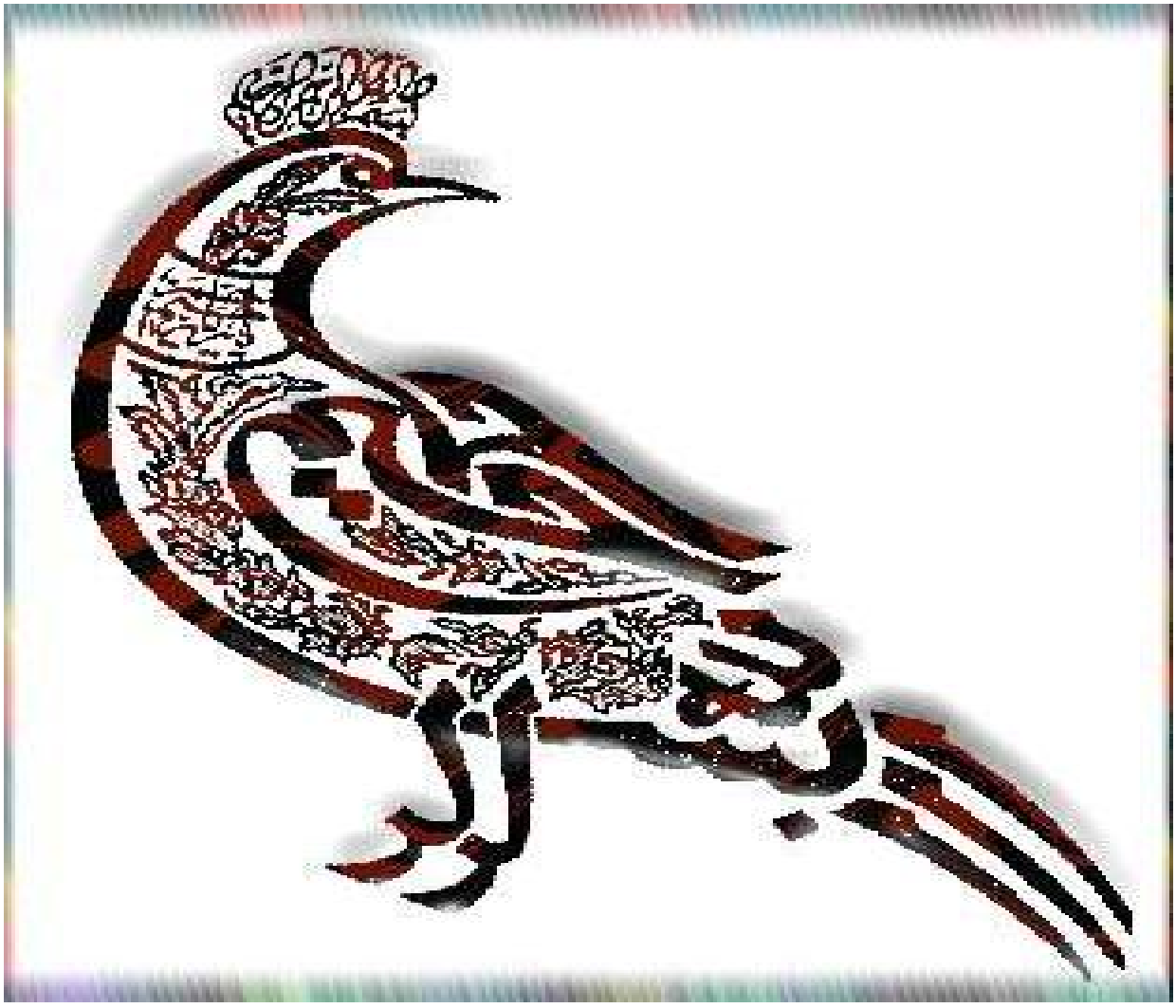

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علىّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾

سورة النمل الآية 19

إهداء

إلى الذين قادهم خطاهم نحو حلم رفعوا إليه حنينا عمره القلق الدّؤوب ومرفأه سفر مستحيل لا ينتهي ليجدوا أنفسهم بعد ذلك أمام بدايات مغلقة دائما يحاولون فتحها بما يحملون من ذلك الإشراق المعرفي الذي تزاحمه أخطاء المسيرة وعثرات الجسارة المسائلة... ليتركوا لنا في الأخير نهايات مفتوحة نحاول الولوج منها إلى عوالم جديدة مجهولة...

إلى الذين ينظرون بعين واحدة ويتكلمون بلسان واحد ويرون الأشياء إما سوداء أو بيضاء، إما شرقية أو غربية.

شكر وامتنان

أوجه شكري وامتناني إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور: «عبد القادر لصهب» على مابذله من جهد ومتابعة في سبيل خروج هذه الدراسة إلى النور وعلى دعمه العلمي والثقة التي وضعها في شخصي بتبنيه الإشراف على هذه الأطروحة ولا أنسى أن أوجه شكري للأستاذ: «أ.د بن مالك، أ.د بغداد، أ.د زغودي، أ.د مصريّ» الذين أمدوني بمراجع قيمة كنت في أمس الحاجة إليها.

وأشكر كذلك صديقاتي: اسمهان، سارة، ربيحة، سليمة، وأفراد عائلتي كلّها. وأوجه امتناني الشديد وعرفاني اللامحدود لأعز مخلوق زوجي "مصطفى" الذي لم يبخل عليّ بالجهد والتشجيع والذي كان لي نعم المعين والصديق في كل الأحوال.

كما لا أنسى امتناني الشديد إلى السيد: "بدر الدين بلخروف" الذي ساعدني على إخراج هذه الدراسة إلى النور.

المقدّمة

مقدمة

تعد ثنائية "الأنا والآخر" إحدى أهم الموضوعات التي باتت تفرض نفسها على الساحة الثقافية فاستحوذت على اهتمام الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع والأدباء خاصة وأنها تشكل ظاهرة نابعة من المجتمع تعبّر عنه.

والحديث عن الجدل القائم بين الأنا والآخر وصراعهما حديث عن صراع قديم قدم الوجود البشري لكونه ظاهرة أقرب من نفس الإنسان وحياته بمختلف أشكالها وشتى مناحيها.

وبما أنه كذلك قد استهدف تفكير العديد من الأدباء والروائيين، قد وقع اختيارنا على هذا الموضوع "الأنا والآخر في رواية المرث" لـ "رشيد بوجدرة" لعدة دوافع وأسباب منها:

- فُتُوّة الرواية فهي لم تدرس بعد بالشكل الكافي.
- الروائي لم ينل المنزلة التي حق له أن ينالها من الدراسة والتقييم وإيمانا مني أن البحث متواصل فقد نظرت إلى الرواية من الزاوية التي تكرّس بثبات الأنا والآخر.
- محاولة البحث عن الجديد والمميز عند رشيد بوجدرة.
- ضرورة الالتفات إلى الرواية الجزائرية المعاصرة والتي هي بحاجة أكبر للاهتمام والدراسة.

ومن الطبيعي أن تواجهنا بعض الصعوبات أهمّها: أنّ كون الأديب والروائي "رشيد بوجدرة" معاصر، وبالتالي محدودية المصادر والمراجع التي ترجمت لسيرته وأعماله..

ولكونه موضوعا جديرا بالدراسة فقد فرض عدة إشكاليات يمكن حصرها في مجموعة من التساؤلات:

ماهية الأنا؟ ماهية الآخر؟ ما مدى بروز هذه الثنائية في الأعمال الروائية؟ وكيف تجلت في عمل "رشيد بوجدرة" ونصه الروائي "المرث"؟.

وقد اقتضت طبيعة البحث تطبيق آليات إجرائية لأكثر من منهج واحد فاعتمدنا على المنهج التاريخي في إبراز جهود الروائيين حول موضوع الأنا والآخر من النواحي اللغوية والاصطلاحية

والفلسفية وقد لجأنا إلى المقاربة الوصفية التحليلية في الصور النفسية للأنا والآخر والظروف الاجتماعية والمعطيات الثقافية لهما، وفي تحليل العديد من النماذج وشرح ملابساتها.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن نستهل البحث بمقدمة يليها مدخل وثلاثة فصول: أعطيت المدخل عنوان: "الأنا والآخر بين المفهومين اللغوي والاصطلاحي" وتناولت فيه مفهوم الأنا واالآخر في الفلسفة والفكر العربي. أما الفصل الأول، فقد كان مخصصا لتجليات الأنا والآخر في الرواية العربية، أما الفصل الثاني فقد خصصته لصورة الأنا من خلال رواية "المرث" في ثلاثة مباحث خصص الأول: للصورة النفسية والثاني للصورة الاجتماعية أما الثالث للمعطى الثقافي، وعقدت فصلا ثالثا، تناولت فيه الآخر في رواية المرث: في ثلاثة مباحث، خصص الأول منه للصورة النفسية، والثاني للصورة الاجتماعية، أما الثالث للمعطى الثقافي للآخر، مذيلين ذلك بخاتمة اعتبرت صفوة الموضوع المقدم.

عائدا الفضل في كل هذا بعد "الأستاذ المشرف" إلى مجموعة من المصادر والمراجع التي استندنا إليها وكانت لنا عونا في خدمة فحوى الموضوع نذكر منها: المصدر الرئيسي هي "رواية المرث" لرشيد بوجدرة.

- سرد الآخر، "الأنا والآخر عبر اللغة السردية"، لصلاح صالح.
- الأنا في الشعر الصوفي، "ابن الفارض أنموذجا"، عباس يوسف حداد.
- مفهوم الذات بين النظرية والتطبيق، قحطان بن أحمد الظاهر.
- في الرواية العربية المعاصرة، فاطمة موسى.

وأخيرا وليس آخر بل أهم ما نختم به مقدمتنا هذه شكرنا الجزيل للأستاذ المشرف لما قدمه لنا من إرشادات، ونصائح قيمة كانت لنا سندا وعونا.

وشكرنا الآخر موصول لأعضاء لجنة المناقشة لتجسمهم عناء قراءة الرسالة والذين سيفيدوننا بتوجيهاتهم التي ستثري هذا البحث وترتقي به إلى مستوى أفضل.

مغنية يوم: 2016/06/09

المدخل:

الأنا والآخر بين المفهومين اللّغوي والاصطلاحي

مدخل: الأنا والآخر بين المفهومين اللغوي والاصطلاحي:

أولا: الخلفية اللغوية للمصطلحين "الأنا والآخر":

1- عند العرب:

أ- الأنا:

إن المتتبع لمصطلحي الأنا والآخر في مفهومهما العام، يجد عدة تعريفات ومفاهيم ومفردات أخرى معبرة عن هذه الثنائية مقابلة لها (الذات، الغير، الهو....).

وإذا حاولنا تتبع هذين المصطلحين في الأصل الوضعي اللغوي (أ.ن.ا) و (آ.خ.ر) فسوف نجد أن العرب قد استخدموهما في لغتهم، وشعرهم منذ القدم، ولحد الآن وذلك بمعاني متفاوتة فيما بينهما.

إن تداول العلاقة بين هذين المصطلحين، والذي أخذ ملفوظات أخرى كثنائية التراث والحداثة أو الشرق والغرب.... كان يشرح دائما في إطار سياقات تاريخية وفكرية مطبوعة تارة بالإخضاع والتبعية، وتارة بالانبهار والإعجاب.

وقبل التطرق إلى المعنى اللغوي الذي تحمله هذه الثنائية، لابد من الإشارة بادئ الأمر إلى أن العلاقات التاريخية التي ربطت هاتين المنظومتين الجغرافيتين، والثقافيتين والإيديولوجيتين المتجاورتين والمتنافرتين في الوقت نفسه، قد تركت أثرا عميقا على كل مناحي الحياة من قيم وأفكار ومشاعر، وأشكال الإدراك.... وعلى اختلاف أوجه المجالات (اجتماعية كانت، أم نفسية، أم فلسفية، أم غير ذلك....).

ولكن على الحصر ها هنا، نجد أن المعنى المتداول الاصطلاحين في المعاجم العربية لا يخرج عن كون (الأنا، كضمير يعبر عن ذات الشخص) و(الآخر، هو المقابل النقيض، هو الغير).

مدخل: الأنا والآخر بين المفهومين اللغوي والاصطلاحي:

فنجد في لسان العرب: "أن للعرب في "أنا" لغات، وأجودها أنك إذا وقفت عليها قلت: أنا بوزن عنا، وإذا مضيت عليها قلت: أن فعلت، وذلك بوزن عنا فعلت. ومن العرب من يقول: أنا فعلت ذلك، فيثبّت الألف في الوصل ولا ينوّن ومنهم من يسكّن النون وهي قليلة "وقضاعة" تمدّ الألف آنا قلته.

وكلمة أنا "اسم مكني وهو للمتكلّم وحده، وإنما بُني على الفتح فرقا بيْنه وَبيْنَ أَنْ التي هي حرف ناصِبٌ للفعل، أما الألف الأخيرةُ، إنما هي لبيان الحركة في الوقف، فإن توسَّطت الكلام سقطت إلا في لغة رديئة كقوله: «أنا سيفُ العشيرة فاعرفوني».[1]

"ولا يختلف عنه ما وجد بمعجم (النفائس الوسيط) حول: أنا: "ضمير رفع منفصل مذكرا ومؤنثا"[2]ونفسه في (المعجم الوسيط)". "يفيد الرفع بصفته ضمير"،[3] وفي ذلك قال "المتنبي":

ودع كل صوت غير صوتي فإنني. أنا الصائح المحكي والآخر الصدى.

ب- الآخر:

نجده لدى (ابن منظور) هو "اسم على أفعل، والأنثى أخرى، إلا أن فيه معنى الصفة لأن أفعل من كذا لا يكون إلا في الصفة، وتصغير آخر أُوَيخِرٌ وقوله تعالى: ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾.(*1) فقال الفرّاء: معناه آخران من غير دينكم من النصارى واليهود. والجمع بالواو والنون، أخريات وأخر، ومعنى آخر شيء غير الأقل.

وحكى بعضهم: أبعد الله الآخر ، ويقال لا مرحبًا بالآخر "أي بالأبعد". "وهو بمعنى غير، كقولك: رجل آخر، وثوب آخر، أصله أفعل من التأخر".[4]

1ابن منظور: "لسان العرب"، مج 1، دار الحديث، القاهرة، د.ط، 2006، ص 258 مادة (أنن، أنى).

2 أحمد أبو حاقة: "معجم النفائس الوسيط"، دار النفائس، لبنان، د.ط، د.ت، ص 09 (أ.ي).

3 إبراهيم مصطفى أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمّد النجّار: "المعجم الوسيط"، تح: مجمع اللغة العربية، مصر، د.ط، د.ت ،ص 28.

(*) المائدة: 107.

4 ابن منظور، "لسان العرب" مج، ص ص94-96، مادة (أخر).

مدخل: الأنا والآخر بين المفهومين اللغوي والاصطلاحي:

ونفس بعض معانيه تكرّر في (العين)، عند القول: هذا آخر، وهذه أخرى وفعل الله بالآخر أي بالأبعد، والجمع أُخَرٌ، وأخرى القوم، أخرياتهم قال: "أنا التي وُلِدْتُ فِي أخرى الإبل".[1]

أما في منجد "اللغة والأدب والعلوم" فقد جاء بمعنى غير، ومن الكناية (أبعد الله الآخر)، «أي من غاب عنا وليس منا».[2]

وفي "معجم الصحاح" نجد أن الآخر «بفتح الخاء، أحد الشيئين، وآخر يؤنث ويجمع بغير من وبغير الألف واللام وبغير الإضافة: تقول مررت برجل آخر وبرجال أخر، وآخرين وبامرأة أخرى وبنسوة أخر وتصغير أخرى أخيرى».[3]

وفي "المعجم الوسيط" يتكرر معناه السبق يكونه "أحد الشيئين، ويكونان من جنس واحد"[4] والآخر في "النفائس هو الأشد تأخرا في الذكر ثم أجري مجرى غير، وهو خاص ما تقدمه، فلو قلت: جاءني رجل وآخر معه لم يكن الآخر إلا من جنس الرجل بخلاف "غير"، فإنها تقع على المغايرة مطلقا في جنس أو صفة، والجمع آخرون، ومؤنثة أخرى، وأخرات ج أخريات وأخر".[5]

1الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب "العين"، ج1، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط31، 2003، ص 60.

2لويس معلوف: "المنجد في اللغة والإعلام"، دار المشرق والمكتبة الشرقية، لبنان، ط31، 1991، ص 05، مادة (أخر، أدم).

3الجوهري: "معجم الصحاح"، اعتنى به خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، لبنان، ط3، 2008، ص 32-33.

4 إبراهيم مصطفى: "معجم الوسيط"، ص 08.

5 أحمد أبو حاقة: "معجم النفائس"، ص 19.

ويرد بمعنى الغيرية في "كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم"، وهو اسم خاص للمغاير بالشخص، بعبارة أخرى، اسم للمغاير بالعدد، وقد يطلق على المغاير في الماهية أيضا".[1]

وما نخلص إليه أن أمهات المعاجم اللغوية قد عنيت بهذين المصطلحين كمعجم (لسان العرب)، و(معجم الصحاح)، و(معجم النفائس)، وغيرها مما يحيلنا إلى أن العرب قد تناولوا هذه الثنائية منذ القدم في لغتهم وأشعارهم، وذلك بمعان مختلفة ومتفاوتة فيما بينها.

2- عند الغرب:

أ- الأنا:

"تشير الاستخدامات التقليدية، والقياسية الواردة في المعاجم الحديثة لمصطلح الأنا بداية في اللغتين الفرنسية (moi/ je) والإنجليزية (I self) أن الأصل اللاتيني هو Ego".[2]التي تفيد معنى الذاتessence في ترجمتها الفرنسية".[3]

ويرد الاصطلاح كذلك بمعان عديدة نحو: الأنا النفساني (Moipsychologique)، الأنا الجسماني (Moi physique)، الأنا الاجتماعي (Moi social).[4]

الأنوي: (Egoist) بمعنى (المؤمن بالأنوية) بعبارة أخرى غرور، وإفراط في التحدث عن النفس. ومنها الأنوية (Egoisme). وهي المذهب القائل بأن الفرد ومصالحه الذاتية أساس السلوك كله".[5]

---

[1] محمد علي التنهاوي: "موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم"، ج1، مراجعة: رفيق العجم، تح: علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية، عبد الله الخالدي، تر: رياقي، مكتبة لبنان، ط1، 1996، ص 71.

2جميل صليبا: "المعجم الفلسفي"، ج1، دار الكتاب اللبناني، لبنان، د.ط، د.ت، ص 139.

3الطاهر قائد: "اصطلاحات فلسفية"، عربي فرنسي، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط2، 1993، ص 18.

4 بسام بركة: "معجم اللسانية"، فرنسي، عربي، منشورات جروس، باريس، ط1، 1985، ص 66.

5 منير البعلبكي، المورد، قاموس انجليزي، عربي، دار العلم للملايين، لبنان، ط41، 2007، ص 305.

- الأنا الأعلى: Le surmoi\super ego

- الأنا المتعالي: [1] Transcendetal self

من كل ذلك: نجد أن المعنى العام الموجود من وراء الاصطلاح (الأنا) هو: الذات essence وإذا عدنا إلى الأصل اللاتيني للاصطلاح ego، نجد أنه يدل على ما تدل عليه كلمة الذات في اللغة العربية حينما يقصد بها الشخص المتكلم.

ونقرأ في (موسوعة لالاند) الفلسفية في معنى الأنا Moiمايلي: «وعي فردي، وبوصفه منشغلا بمصالحه ومنحازا لذاته، وأيضا الميل إلى إرجاع كل شيء إلى الذات، ويستشهد "لالاند" بعبارة العالم الفرنسي: "بليز باسكال" يقول فيها: "للأنا خاصيتان: فمن جهة هو في ذاته غير عادل من حيث إنه يجعل من نفسه مركزا لكل شيء وهو من جهة أخرى مضايق للآخرين من حيث إنه يريد استعبادهم، ذلك أن كل "أنا" هو عدو ويريد أن يكون المسيطر على الكل»، من خلال هذا التصور ل "الأنا" كمبدأ للسيطرة يتحدد موقع الآخر ودلالته ووظيفته في الفكر الأوروبي أي بوصفه موضوعا للسيطرة أو عدوا، أو بوصفه قنطرة تتعرف الذات من خلاله على نفسها.[2]

ب- الآخر:

"فيما يخص الأصل اللاتيني للكلمة "الآخر" هو Autre، بمعنى غير، ويقال: الناس الآخرون– Les autres ".[3]

"ومنها آخر وأخرى ج: أخر وأخريات Autre – adj–et pron–indef".[4]

1عطوف محمود ياسين، قاموس مصطلحات علم النفس، عربي إنجليزي فرنسي، مؤسسة نوفل، لبنان، ط1، 1981، ص 108-109.

2html: دروس تعليم الفلسفة، معنى الأنا حسب لالاند/File:///F:/%C2%Ao

3 سهيل إدريس: "المنهل" قاموس فرنسي–عربي، دار الآداب، لبنان، ط34، 2005، ص 114.

4 عبد القادر بلعيد، هشام حسان، أحمد العايد، "المجيب" فرنسي عربي، معجم وظيفي لغوي، دار اليمامة، الصين، ط1، 2007، ص 83.

وفي ترجمة المصطلح الإنجليزية نجد، آخر: another–else diffrent.

الآخر بمعنى الغير، نحو: The other (one)–third party.

هو الآخر بمعنى هو أيضا نحو: "He also – he too – he as well"[1]

وخلاصة قولنا أن "الأنا والآخر" هما مصطلحان متقابلان متضادان، أنتجهما أساسا الثقافة الغربية لتعتبر الأولى عن المركزية، والعالم أطراق بحيث أنها التفوق، والتميز، والحضارة والآخر هو التخلف والدونية، وهو تفصيل ثانوي:

ثانيا: مفهوم الأنا والآخر في الفلسفة والفكر العربي:

1- الخلفية الفكرية لمصطلح الأنا:

"لقد شغلت الذات الإنسانية بما فيها من غموض، وتنوع عددا من المفكرين، والعلماء، والفلاسفة اليونان"،[2] وحتى حكماء الصين والهند في القرون الأولى".[3] وبالتالي تعد الذات واحدا من بين المباحث التي شغلت حيزا لا بأس به من المنظومة الفكرية الإنسانية، وهذا مند القدم، بل إن سؤال الذات هو واحد من الأسئلة التي صاحبت الإنسان مند وعي وجوده.

"وبرغم تشعبات مناحي المفهوم واختلاف توجهاته، فإن القاسم المشترك الذي يجمع كل هذا الشتات، هو أن "الذات" مفهوم جوهري لتحديد مكان الإنسان من الوجود، وإن معرفة الذات لا تتوخى إلا عن طريق الذات، ولقد بين "ابن سينا"، أن تحقق الإنسان من وجوده، يتم بتمثله ذاته بذاته بلا توسط أي هو عبارة عن علاقة مباشرة للذات المدركة بذاتها، هي مصدر تيقننا من حقيقتنا الذاتية".[4]

1 روجي البعلبكي، المورد الثلاثي، قاموس ثلاثي الأبعاد، عربي، إنجليزي، فرنسي، دار العلم للملايين، لبنان، ط3، 2005، ص 63.

2 ينظر: ميشيل فوكو، "الإهمام بالذات، ت، جورج أبو صالح، مركز الإنماء العربي، لبنان، د.ط، 1992، ص 32-33.

3 والاس د، لا بين، برت جرين: "مفهوم الذات أسسه النظرية والتطبيقية"، ت، فوزي بهلول، مكتبة الأنجلو مصرية، مصر، د.ط، 1979، ص 08.

4علي حرب: "بعد الحقيقة"، المركز الثقافي الغربي، المغرب، ط3، 2002، ص 89.

مدخل: الأنا والآخر بين المفهومين اللغوي والاصطلاحي:

أ- الأنا من المنظور الفلسفي:

"اهتمت الفلسفة العربية بالأنا فبدت كأنها تمفصل أنطلوجيا بيستمولوجي معا وهما فرعان من فروع الفلسفة، يهتم الأول منها بالبحث في علم الوجود، والثاني بنظرية المعرفة".[1]

وهذا التناول لديهم: بين الوجودي والمعرفي يعود إلى طبيعة الثقافة العربية الإسلامية ما انفكت تبحث عن الأنا، وتتعرف عليها، وعلى طبيعتها من خلال وجودها وإدراكها المستمر لكونها حلقة في تطور الذات الإنسانية بوجه عام، بالإضافة إلى رؤاها حول طبيعة النفس بمفهوم مقابل للأنا في الاصطلاح الفلسفي، ومن هنا أصبح مصطلح النفس الأكثر شيوعا، واتساعا من مصطلح الأنا في الفلسفة العربية.[2]

يقول "ابن سينا": «المراد بالنفس، ما يشير إليه كل أحد بقوله أنا».[3]

وفي العصر الحديث لقيت اهتماما موسعا في نطاق الفلسفة بصفة عامة، ففي نظرية المعرفة ترجم مصطلح الذات بالماهية وهي "الخصائص الذاتية لموضوع معين وتقابل الوجود، ومنه التعبير الشائع: الوجود والماهية"[4]، كما أسهمت الفلسفة الوجودية بنصيب موفور في مناقشة هذا المصطلح انطلاقا من قناعتها بأن السؤال عن الأنا هو سؤال عن الوجود، "ويترتب عن ذلك القول بأن الوجود «هو أولا وجودي أنا، أنا الذات المتفردة».[5] أما ديكارث فقد حاول أن يجعل الأنا مجال المعرفة الجوهري فربط بين الأنا فكرا، والأنا وجودا ليصل إلى نتيجة "أفكر إذن أنا موجود"،[6] أما فيتشه فقد ضمها إلى فلسفة العلم، «حيث لا معرفة فوق إمكانية العقل أو خارجها معرفيا ووجوديا، وأصبحت الأنا المطلقة عنده هي مركز نظرية العلم».[7]

---

1 ينظر: عبد الرحمن بدوي: "موسوعة الفلسفة"، ج1، المؤسسة العربية، مصر، ط1، 1984، ص 114، 117 مادة "أنا".

2 ينظر: عباس يوسف حداد: "الأنا في الشعر الصوفي (ابن الفارض أنموذجا)"، دار الحوار، سوريا، ط2، 2009، ص 199.

3جميل صليبا: "المعجم الفلسفي"، ص 139، 140.

4مجمع اللغة العربية: "المعجم الفلسفي"، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، د.ط، 1983، ص 87.

5 عبد الرحمن بدوي: "دراسات في الفلسفة الوجودية"، النهضة المصرية، مصر، ط2، 1966، ص 19.

6 نجيب البلدي: "ديكارث"، سلسلة نوابغ الفكر الغربي، دار المعارف، مصر، ط2، 1968، ص 200.

7 ينظر: عباس يوسف الحداد: "الأنا في الشعر الصوفي"، ص 192.

ب- الأنا من المنظور الصوفي:

إن المتصفح لمعجم الكلمات الصوفية ليلمس اقتران مصطلح الذات والأنا بالألوهية، إن الذات وجود الحق المحض وحده عينه، لأن ما سوى الوجود من حيث هو وجود الحق ليس إلا العدم المطلق، وهو الشيء المحض، فلا يحتاج في أحديته إلى وحدة، وتعين يمتاز به عن شيء، أي لا عين غيره فوحدته عين ذاته، و"الغزالي" يقول: «ذات للنفس خمس واجهات: النفس الملهمة، اللوامة، البصيرة، المطمئنة، والأمارة بالسوء». اعتبر الأربع منها حميدة والأخيرة العكس ومنها الآنية، التي تعني بتحقق الوجود العيني من حيث رتبة الذاتية.[1]

ج- من المنظور النفسي: "الذات / SELF في ترجمتها الإنجليزية".[2]

يستخدم مصطلح "الذات" من وجهة النظر النفسية عادة، للدلالة على "الشخصية أو الأنا". حيث يجري اعتبارها بمثابة عامل (agent). يعني هويته المستمرة.[3]

ويستخدم أحيانا بمدلوله الواسع فيطلق على الحيوان أو حتى على شيء مادي كعامل من العوامل.[4]وهو ما يعرف بالذاتية المادية (self materiel)، أي كل ما يتعلق بالأشياء المادية كجسم الشخص وملابسه ومنزله.[5]

ويعد الاصطلاح ركنا يميزه "فرويد" في نظريته الثانية حول الجهاز النفسي عن الهو والأنا الأعلى ومتطلبات الواقع في آن معا. ورغم أنه يلعب دور الوسيط. باعتباره مكلفا بالحفاظ على مصالح الشخص في كليته فإن استقلاله لا يعدو كونه نسبيا تماما..[6]

1ينظر: أحمد النقشندي الخالدي: "معجم الكلمات الصوفية"،تح: أديب نصر الدين، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، 1997، لبنان، ص 16.

2ينظر: عبد المنعم حنفي: "موسوعة علم النفس"، ج2، مكتبة مدبولي، ط1، 1978، ص 275.

3ينظر: النايف القيسي: "المعجم التربوي، وعلم النفس"، دار أسامة، المشرق العربي، دار المشرق الثقافي، الأردن، ط1، 2010 ، ص 234.

4ينظر: ماكدونالدلال: "قاموس مصطلحات علم النفس"، تر: يوسف ميخائيل أسعد، دار النهضة العربية، مصر، د.ط، 1971، ص 147.

5ينظر: أسعد رزوق: "موسوعة علم النفس"، مراجعة: عبد الله الدايم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط2، 1979، ص 138.

6ينظر: جان لابلابش ف-ج-ب بونتاليس: "معجم مصطلحات التحليل النفسي"، تر: مصطفى حجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، 1985، ص 97 مادة "أنا".

ومن هذا المنطلق تحاول النظرية التحليلية النفسية، أن تبين تكوين الأنا من خلال سجلين متباينين نسبيا، فأما أن ترى فيه جهازا تكيفيا تمايز عن الهو بالاحتكاك مع الواقع الخارجي، أو هي تعرفه كنتاج للتماهيات التي تفضي إلى تكوين موضوع حي ضمن الشخصية ينصب عليه توظيف الهو.[1]

"والذات كموضوع، وهي الذات التجريبية العملية وتتضمن: الذات المادية (جسم الفرد، أسرته...)، الذات الاجتماعية (وجهة نظر الآخرين نحو الفرد)، الذات الروحية (انفعالات الفرد ورغباته)".

هذا الفهم الخاص بالذات يتخذ شكلا آخر عند "وليام جيمس" حيث يرى «الذات الإنسانية من منظوره الخاص فيقول: "أن للإنسان من الذوات، بقدر عدد الذين يعرفونه من الناس، فله ذات معينة لزوجته، وذات أخرى لأولاده، وذات ثالثة لزميله في العمل، وذات رابعة لربه"».[2]

وفي خضم آخر نجد "جورج جوردك" أن الأنا سلوك سلبي في أساسه، وأننا نعيش حسب قوله «مدفوعين بقوى غير معروفة، ولا يمكن إخضاعها لسلطتنا». على أساس أن اسم "الأنا" يطلق على ذلك الكيان الذي ينشأ عن جهاز الإدراك الحسي الذي يصبح ما قبل الشعور، حسب رأيه.[3]

د– من المنظور الاجتماعي:

"تعرف الأنا في علم الاجتماع بأنها فرد واع لهويته المستمرة ولارتباطه بالمحيط"،[4] "فإحساس الفرد بأناه لا يتحقق إلا بعد إدراكه لكينونية أولا كيف لا وجسدي هو مركز التوجه، نقطة الصفر، منه أرى كل ما أستطيع رؤيته... فهو عامل محرك لمجرى الإدراك".[5]

1ينظر: المرجع السابق، ص 97 مادة "أنا".

2قحطان بن أحمد الظاهر: "مفهوم الذات بين النظرية والتطبيق"، دار وائل للنشر والتوزيع، ط1، 2004، ص 17.

3ينظر: سيغموند فرويد: "الأنا والهو"، إشراف: محمد عثمان نجاتي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط4، 1998، ص 40.

4 ينظر: ميخائيل إبراهيم أسعد: "شخصيتي كيف أعرفها؟"، دار الأفاق الجديدة، لبنان، ط3، 1987، ص 70.

5 بول ريكور: "فلسفة الإرادة، الإنسان الخطاء"، تر: عدنان نجيب الدين، المركز الثقافي العربي، لبنان، د.ط، 2003، ص 51.

"ونتيجة على هذا التكامل الاجتماعي الذي تحققه "الأنا" فإن الأمر يفترض وجود حالة أخرى اسمها "النحن" حيث أننا إذا استطعنا أن نتصور الأنا قوة من بين القوى التي توجد في مجال سلوكنا، فيمكن تصور النحن قوة من بين هذه القوى، تضم الأنا بحيث يصبح جزءا من الكل ولا يقوم كقوة مستقلة،[1] فتواجد مجموعة من الناس يلغي تعدد الأنوات الفردية ويختزلها ضمن نطاق واحد هو النحن، أو الأنا الجمعية، ولعلها النقطة التي يلتقي فيها علم الاجتماع بعلم النفس، لإقرارهما بنفس الحقيقة".[2]

هـ- من المنظور القرآني:

ورد لفظ الأنا في القرآن الكريم بصيغة المفرد (أنا، إني، إنني)، وبصيغة الجمع (إنّا، أنّا، نحن)، دالا على ذات الله تعالى.

يقول عز وجل: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ *الحجر 49*.

وكذلك سورة: الرعد آية 41، وسورة الأنبياء آية 25، وسورة مريم آية 67. كل تلك السور تشير إلى العلاقة بين الله عز وجل وبين مخلوقاته... نحو انفراد الله عز وجل بعلم الغيب قال "عز وعلا": ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ *البقرة 32*.

وردت لفظة أنا على لسان الرسل في القرآن مبينة لحدود علاقتهم بالله تعالى وبالموجودات عامة. سورة الأنعام آية 79، الأعراف آية 188.

تحدثت الملائكة بضمير المتكلم لبيان أنهم مسبحون بحمد الله، التنزيل بالرحمة، التنزيل بالعذاب وحرصهم على دفع شرور السحر وتمكينهم من الوقاية منه في السور: سورة فصلت آية 31، وسورة مريم آية 19، وسورة هود آية 70، وسورة البقرة آية 102[3].

1 مصطفى سويف: "الأسس النفسية للإبداع الفني الشعر خاصة"، دار المعارف، مصر، د.ط، 1959، ص 139.

2 سماح خالد زهران: "كيف تفهم نفسك وتفهم الآخر"، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 2004، ص 64.

3ينظر: السيد عمر: "الأنا والآخر من منظور قرآني"، تح: أبو الفضل ونادية محمود مصطفى، دار الفكر، سوريا، ط1، 2008، ص 140، 147.

والمترفون في كل قرية، الذين يقولون إنهم أكثر من غيرهم مالا وأولادا، يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ *سبأ 35*. وغيرهم هذه الأنواع التي تعددت في كتابه "عز وجل" للدلالة على قدرة الخالق وعزته وعلاقته برسله وملائكته وببشريته أجمع.[1]

2- الخلفية الفكرية لمصطلح الآخر:

في تاريخ الفكر كما في العلوم الإنسانية احتلت موضوعة الآخر، ومازالت مكانة مبرزة، نظرا لارتباطها الجدلي بموضوعات أساسية ملازمة: الأنا / الذات / الهوية / الصورة / السلوك / العلاقة... إلخ، والغير مرادف الآخر والآخرين، وهو اسم جمع لا مفرد له: altrui أو aultri في اللاتينية والفرنسية.

لابد له من واقع الاجتماع أن يتبعّض فيصير الآخر (بالمفرد والجمع)، الذي نعيش معه تجارب كالقرابة، والصداقة، والجوار، أو كالخصومة والمنافسة... كلها سمات وعناصر يحفل بها مسرح الحياة والتاريخ، وتزود الأجناس الأدبية بمواد خام، تقوم فيها ثنائية "الذات والآخر" مقام المدار الملاحم والمحور المحرك.[2]

"والآخر هو الكلية المزدوجة للكينونة الذاتية، في علاقة الذات بالذات، ولا تنتهي إلا بانتهاء الوجود البشري في الزمان والمكان، فالفرد يمكن أن يكون آخر حتى بالنسبة لنفسه قبل مدة قصيرة، ويمكن أن يتحول إلى آخر بعد مدة قصيرة أيضا، وكل شخص هو آخر بالنسبة لأي شخص على وجه الأرض".[3]

أ- الآخر من المنظور الفلسفي:

الآخر يأتي بمعنى "صفة كل ما هو غير أنا، وفكرة الآخر بمعنى غير الأنا مقولة ابستمولوجية ملخصها الإقرار بوجود خارج الذات العارفة، أي كينونات موضوعية".[4]

---

1 ينظر: المرجع السابق، ص 147.

2ينظر: بن سالم حميش: "في معرفة الآخر"، دار الحوار، سوريا، ط 2، 2003، ص 5، 6.

3 ينظر: صلاح صالح: "سرد الآخر، الأنا والآخر عبر اللغة السردية"، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2003، ص 10.

4ينظر: عباس يوسف الحداد: "الأنا في الشعر الصوفي ابن الفارض أنموذجا"، ص 281.

أما الآخر عند "هيدغر" فهو مرتبط بالسقوط، فهذا الآخر قد رمي به في هذا العالم، غير أنه لا يملك سوى التسليم به، وهذا السقوط قد يؤكد على معنيين أحدهما إيجابي والآخر سلبي: أما كونه إيجابي فلأن "بغيره ما كان يمكن وجودي أن يكتشف لنفسه، ولولاه لظل وجودي في إمكانات الوجود لا نهاية لها، أي أن سقوطي هو الذي حددني وبتحديدي تحقق وجودي العيني".[1]

فهيدغر يعني بالسقوط هنا تواجده في هذا العالم مع الآخر الذي أدى إلى تحقيق كينونيته ومعرفتها التي لا تتم بمعزل عن معرفة الآخر "فالآخر يدخل عنصرا مقوّما عن صميم وجود الأنا وماهيتها، والأنا بذلك لا تكون إلا من خلال توقفها على الآخر، واستقلالها عنه في وقت واحد".[2]

"فإذا كان الآخر ضرورة حتمية في الوقت نفسه، يمثل الخطر الذي يهددني بل والموت المستور لإمكاناتي"،[3] على اعتبار أن من شأن حريته أن تحد من درجة حريتي، إلا أنه لا مناص من الوجود مع الناس كما يرى "جون بول سارتر".[4]

ب- الآخر من المنظور القرآني:

وردت مادة آخر في القرآن الكريم بصيغ عديدة نذكر منها:

- شخصان يجمعهما مكان واحد كصاحبي "يوسف" في السجن فمن تحدث معه يوسف أولا اعتبر الأول في حين اعتبر الثاني بالآخر، قال عز وجل: ﴿وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ *يوسف 36*.

- أخوان أحدهما صالح والآخر طالح، وفعل كل منهما بالآخر كنموذج "قابيل وهابيل" قال عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ *المائدة 29*.[5]

1عبد الرحمن بدوي: "دراسات في الفلسفة الوجودية"، ص 85، 86.

2محمود رجب: "المرأة والفلسفة"، حوليات كلية الآداب، الحولية الثانية، جامعة الكويت، د.ط، 1981، ص 07.

3جون بول سارتر: "الوجود والعدم"، تر: عبد الرحمن بدوي، دار العودة، لبنان، ط3، د.ت، ص 03.

4جون بول سارتر: "المرجع نفسه"، ص 19.

5ينظر: السيد عمر: "الأنا والآخر من منظور قرآني"، ص 159.

فهذه بعض الشواهد التي ذكر فيها لفظة الآخر، ولا يتسع المجال لذكرها جميعا فقد وردت هذه اللفظة "آخر" بالإفراد والتثنية، والجمع في القرآن الكريم ثمانين مرة.[1]

ج- ونجد كذلك الأنا والآخر عبر اللغة:

فاللغة تعد مشتركا إشكاليا بين الأنا والآخر، الأنا بمختلف أشكاله، ومستوياته، وانشطراته، والآخر أيضا بمختلف إلتباساته ومراياه فالانزلاق من الأنا إلى الآخر أو العكس يتمثل أحيانا كثيرة في انزلاق لغوي، حيث تنزلق اللغة أو تتسرب على غفلة من مستعملها، أو بوعي منه لتصير لغة الآخر، ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى عبر الحوارات، والمناقشات، الرصينة العفوية، التي تدفع أحد طرفي ثنائية الحوار إلى ركوب لغة الطرف الآخر... أي مثلما يحدث عندما يستغل واحدنا زلّة لفظية ليبني عليها موقفا ما، وتركيبا لغويا مكونا من كلماته نفسها لكنه يتخذ منحى مغايرا، أو حين تنزلق لغة الكبير إلى مستوى لغة الطفل.[2]

من خلال ما تقدم رأينا أن لمصطلحي الأنا والآخر مفاهيم متعددة في علوم مختلفة سواء في اللغة، أو علم النفس، أو علم الاجتماع... وغيرها من العلوم، وهذا لا يعني أن هذين المصطلحين ينحصران في هذه العلوم أو هاته المجالات فحسب بل نجد أن لهما تجليات عدة ومتنوعة.

فنجد الأنا والآخر كضمائر سرد في القصص، والروايات، والحوار... وبديهي أن استعمال أي من ضمائر السرد يقتضي ثنائية الأنا والآخر: فعندما يكون الأنا هو السارد تصبح الثنائية في موقع الوضوح، والسطوع فالأنا أناء وجميع من يقع خارجها ينتمي إلى خانة الآخر.

1 ينظر: المرجع السابق، ص 159.

2 ينظر: صلاح صالح: "سرد الآخر، الأنا والآخر عبر اللغة السردية"، ص 49، 50.

مدخل: الأنا والآخر بين المفهومين اللغوي والاصطلاحي:

يعتبر الآخر بكل ألوانه وأطيافه ذا خصوصيات وسمات تبرز ماهيته ومعدنه، ولا يمكن إدراك هذا الآخر واعتمادا على الفروقات والاختلافات والتناقضات التي تؤصل أو تحكم العلاقات المتباينة والصراعات الظاهرة، والباطنة، المكشوفة والمخفية بين الذات والآخر، مما أضفى على الآخر صبغة التفرد والاختلاف منذ الأزل إلى عصرنا المعاصر. ويبقى الآخر حاملا لمعاني الفوقية، والتقدم والتطور في انتظار لحاق الذات التي لا تزال رابضة في مكانها تنتظر وتندد وتتمنى رفع رأسها الذي أتعبته الطأطأة.

الفصل الأوّل:
تجلّيات الأنا والآخر
في الرّواية العربيّة

الفصل الأول: تجليات الأنا والآخر في الرواية العربية:

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على نظرة الروائيين للعلاقة بين "الأنا" التي تمثل الذات العربية و"الآخر" الذي يرمز لحضارة الغرب وثقافته من خلال الوقوف على عدة نماذج غربية كانت، ولو بصفة عامة أم عربية بصفة خاصة. كل ذلك في خارطة الإبداع الروائي.

يمكن أن نؤرخ للموجة الجديدة من علاقة الشرق بالغرب منذ اللحظة التي دقت فيها مدافع نابليون أهرامات مصر سنة 1798م، معلنة بداية مرحلة جديدة من التاريخ العربي الحديث، وكان وعي الأنا القومية بمدى تقدم الآخر الغربي، وتفوقه بمثابة المرآة التي عكست مدى تخلفها، وحقيقة الهوة التي تفصلها عن الركب الحضاري العالمي، مما ولد لديها الرغبة في اللحاق بهذا الركب، وعدم التخلف عنه بعد أن حددت طبيعة العلاقة المتوترة بين طرفين: أولهما متقدم منتصر صاعد، وثانيهما متخلف منهزم نازل.

وظل السؤال الجوهري هو: لماذا تقدم الآخر، وتأخرت الأنا منذ تلك اللحظة أضحت أولويات الفكر العربي هي موضوع العلاقة بين الأنا والآخر، وما انطوت عليه من استجابات لم تخل من التذبذب بين الرفض والقبول، قبول المتغيرات العلمية والاجتماعية بحثا عن مشروع نهضوي ورفض تلك التي تسعى إلى تشويه الأسس العقائدية والأخلاقية للذات العربية الإسلامية.

وهذا الموضوع، ونعني بذلك مسألة المقابلة بين الأنا والآخر، سلبا أو إيجابا بغضا وصراعا أو محبة وتواصلا، هو موضوع قديم قدم الوجود البشري نفسه، وما كان إذن ذكرنا أو مرورنا بفترة نابليون إلا إشارة.

وقد تمت معالجته "موضوع الأنا والآخر" بخلاف الأعمال الروائية من خلال مقاربات نثرية أخرى عديدة من زوايا نظر، ومضامين شتى: فلسفية وسياسية وأنثروبولوجية وسوسيولوجية وتاريخية. وما إلى ذلك من المنطلقات المختلفة لسائر العلوم الإنسانية الأخرى.

فإذا ما تركنا فلاسفة اليونان القدماء، وفلاسفة العصور الوسطى جانبا، فإننا نجد أن هذا الموضوع قد تطرق إليه بصورة من الصور مفكرون، وكتاب كثيرون من بيئات، وثقافات وخلفيات،

وأزمان متباينة نذكر منهم على سبيل المثال بعض المفكرين الغربيين الذين تناولوا المسألة هذه بين الشرق والغرب على أنها علاقة صراع "صامويل هنتجتون" في نظريته (صدام الحضارات).

وهو عبارة عن مقال نشره الكاتب في مجلة (العلاقات الخارجية) سنة 1993م، ثم قام بتوسيع مقالته إلى كتاب صدر سنة 1996م بعنوان (صراع الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي)، وفيه تناول مفهوم الحضارات العلاقة بين القوة والثقافة، ميزان القوة المتغيرة بين الحضارات، والصراعات التي تولّدها عالمية الغرب مستقل الغرب، وحضارات العالم. وعن مفهوم الصراع يؤكد أن المحور المركزي في السياسات العالمية سيكون الصراع بين الغرب المسيحي، وبين الحضارة الإسلامية الرافضة لقيمه خصوصا بعد انتهاء الحرب الباردة، وانهيار الإتحاد السوفياتي.[1]

غير أن "هنتجتون" لم يكن الوحيد الذي تعرض لهذه القضية فالمكتبات الغربية مليئة بالدراسات التي تعكس في مضامينها، وعناوينها هذه العلاقة من مثل "جوزيف كونراد" ورواية الكاتب الفرنسي "ألبيركامو" (الغريب)، ورواية الروائي الإنجليزي "إدغار مورغان فورستر" (رحلة إلى الهند)، ورواية (التجربة الغامضة) للكاتب السنغالي "شيخ حامدو كان"، ورواية (الأشياء تتداعى) للكاتب النيجيري "نشيناوا أشيني"، وهلم جرا.

وغالبا ما يرتبط التناقض والتضاد بين الأنا والآخر في أعلى تجلياته حده كما تصوّره الأنماط الحضارية إلى العنف والفجيعة والمأساة. ففي رواية (الغريب) مثلا لـ "ألبيركامو" يقتل الفرنسي "ميرسو" فتى عربيا جزائريا بلا أدنى سبب، أو مسوغ زاعما في عبثية ظاهرة، ولكنها عبثية ذات دلالة رمزية قوية الصلة بحقيقة رفض الأنا في أقصى درجات تطرفها أحيانا للآخر بكافة متعلقاته بما فيها البيئية والطبيعية التي لا يملك حيالها شيئا.

أما رواية (الأشياء تتداعى) لكاتبها "نشيناوا أشيني" فقد صورت بطريقة فنية الأثر الطاغي بل الانقلاب الجذري الذي أحدثه الاستعمار الانجليزي بكل أبعاده السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية على مجتمع قبيلة "الإيبو" في جنوب شرق نيجيريا، وما تمخض عنه من صدمة ثقافية،

1 E samuel philips huntington – wikipedia.htm

واجتماعية قاسية، والتكالب الاستعماري في أبشع صوره مما أدى إلى نهاية المطاف إلى تحطيم مجتمع الإيبو التقليدي إلى غير رجعة. وقد توسل الكاتب "أشيني" فنيا لتصوير نتيجة صدام الهويات هذا، وتعارضها من خلال هذه الرواية عبر قصة زعيم العشيرة التقليدي "أوكونوكو"، وهو بطل الرواية الذي لم يستطع أن يتحمل رؤية العالم، الذي درج فيه طفلا، وترعرع فيه شابا إلى أن استوى رجلا ذا حيثية ومكانة على مستوى مجتمعه المحلي، لم يتحمل أن يرى ذلك العالم بأحيائه وأشيائه ينهار ويتداعى أمامه مما دفعه إلى الانتحار.[1]

هذا عن العلاقة بين الأنا والآخر في الفكر والأدب الغربيين، فماذا عن تجلياتها في أدبنا العربي؟

لنبحث عن هذه المسألة في مضامين الرواية العربية خاصة إذا علمنا أن "الأدب يظل آخر المهزومين في قضايا الصراع حين يقع، بل يتحول إلى سلاح جديد عندما تسقط الدولة عسكريا، وأن الرواية أكثر أشكال الفن الأدبي تصويرا للمراحل التاريخية الإنسانية وللتطورات الأخلاقية والفكرية".[2]

"ويعلن تاريخنا الأدبي اعترافه الكامل بهذا التأثير، وعلى سبيل المثال ما ذكرته "أ.فاطمة موسى" من أن اتصال الكاتب العربي بالغرب في مطلع هذا القرن هو ما سينير أمامه الطريق، ويدفعه للوعي بهويته العربية، وبالتالي سيحثه على خلق عالم خصوصي عبر الأشكال السردية الحديثة أي الرواية والقصة القصيرة".[3]

لقد تعرض الأدباء العرب لمسألة العلاقة بين الأنا والآخر، وتشهد على ذلك إبداعاتهم التي عكست هذا الصراع بكل أبعاده وصوّروه تصويرا شاملا إلا أن زوايا الرؤية لديهم كانت مختلفة.

1خالد محمد فرح: "جدل الأنا والآخر في أعمال الطيب صالح"، (مقال)، الأربعاء، 30 سبتمبر 2009، في سودانيل، www.SUDARESS.com/SUDANILE/6017.

2 ينظر: عبود شلتاغ: "الأدب والصراع الحضاري"، دار المعرفة، دمشق، د.ط، د.ت، ص 89.

3 ينظر: فاطمة موسى: "في الرواية العربية المعاصرة"، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، 1972، ص 231 - 232.

"ولنا من بينهم: أنا عثمان الجاحظ والشهر ستاني، وعبد الرحمان بن خلدون، ورفاعة الطهطاوي ورشيد رضا ومحمد عبده ومالك بن نبي وإدوارد سعيد ومحمد عابد جابري" وغيرهم،[1] مما سيأتي علينا ذكرهم فيما بعد.

وبالتالي لم تكن الأعمال الروائية العربية تبدع من نظيراتها في مختلف أنحاء العالم في الاهتمام بإبراز جدلية العلاقة بين الأنا والآخر، "بل أضحت في إطار ما يصطلح عليه بنوع الروايات الحضارية... ونخص بذلك تلك الروايات العربية التي حاولت أن تنظر إلى الآخر (الغرب) انطلاقا من الأنا (الشرق): عسى أن تساهم في إقامة جسور التفاهم بين عالمين متعارضين قيميا محكوم عليهما بالتعايش، والتثاقف الإيجابيين".[2]

كل ذلك في تناص، وتحاور فنيين مع أبرز الأعمال السردية التي تنزع نحو هذا المنحى من قبيل "رواية (علاء الدين)، لـ "علي باشا مبارك"، التي نشرت عام 1882م. وعدت من قبل البعض كأول رواية عربية حديثة على الإطلاق أي ما يجعلها سابقة لرواية (زينب)، التي أصدرها الدكتور "حسين هيكل" في عام 1914م بأكثر من اثنين وثلاثين سنة من الزمان على الرغم مما يشاع على نطاق واسع بأن هذه الأخيرة هي الرواية العربية الأولى تاريخيا.

ومن باب الإشارة فقط لا الحصر، فإن رواية (علاء الدين) هي عبارة عن رواية تعليمية، يدوّن من خلالها كاتبها بصورة غير مباشرة طرفا من سيرته الذاتية في فرنسا خلال النصف الثاني من أربعينيات القرن التاسع عشر 1851 - 1844م. ولكن بأسلوب قصصي، وتعليمي رمز فيه إلى شخصيته الحقيقية بالاسم المتخيل "علاء الدين".[3] وهكذا تتوالى هذه السلسلة من الروايات الحضارية إنجاز التعبير، أي تلك الروايات التي ترصد، وتصور جدل الأنا والآخر، وخصوصا تلك التي ترصد العلاقة المتوترة، والملتبسة بين الشرق والغرب، أو بين الشمال والجنوب وهنا تقفز إلى الذهن مباشرة

1 خالد محمد فرح: "جدل الأنا والآخر في أعمال الطيب صالح"، (مقال).

2 فاطمة موسى: "في الرواية العربية المعاصرة"، ص 232.

3 خالد محمد فرح: "جدل الأنا والآخر في أعمال الطيب صالح"، (مقال).

روايات بعينها مثلا: (عودة الروح) 1933م و(عصفور من الشرق) 1938م لـ "توفيق الحكيم" ورواية (قدر يلهو) 1939م لـ "شكيب الجابري"، ورواية (قنديل أم هاشم) 1944م لـ "يحي حقي"، و(موسم الهجرة إلى الشمال) 1967م لـ "الطيب صالح"، و(ثلاثية غرناطة) 1994م لـ "رضوى عاشور"، ورواية (أديب) لـ "طه حسين"، وروايتي (الغربة) و(اليتيم) لـ "عبد الله العروي" 1971 – 1978، ورواية (ما لا تذروه الرياح) لـ "عرعار محمد العالي" 1972م، ورواية (أرخبيل الرعب) لـ "ظافر ناجي" 1994م، وروايتي (الأمير) و(نوار اللوز) لـ "واسيني الأعرج" وهلم جرا.

وفيما يلي نأتي عل تحليل بعض من هذه الروايات لتتضح الرؤية أكثر ولنستكشف مواطن، ومعالم الجدلية "الأنا والآخر" ورصدها في ثنايا متن هذه الروايات نحو:

1/ عصفور من الشرق: لـ "توفيق الحكيم"، الذي تحمل عناء السفر إلى "باريس" ليعرف حجمه وحجم الآخر، أهما متلاقيان أم منفصلان؟ وهل من سبيل للانسجام أم أن ذلك أمر حرام؟ كيف هي أحوال الغرب بعيون العصفور؟

جاءت رواية "توفيق الحكيم". (عصفور من الشرق)، من أجل "أن تطرح رؤية نقدية وهجائية للغرب يحملها البطل منذ أن وضع قدمه في قلب العاصمة الغربية "باريس" فهو لا يتأثر بالغرب وإنما هو مرتبط بشرقه إلى أبعد الحدود".[1]

عكست شخصية "محسن" الطالب المصري الذي اختار عاصمة الجن والملائكة مكانا لاختبار قوته الروحية في مواجهة القوة المادية الطاغية في جنبات المدينة الفرنسية بشوارعها ومنتجاتها ونسائها وأشياء كثيرة لم يسبق لـ "محسن" أن رآها فكان القاضي والحكم في استحسان الأمور واستقباحها، طبيعي أنه من شب على شيء شاب عليه و"محسن" عصفور الشرق من طينة شرقية تعاني هي الأخرى من قهر وانتداب بريطاني حل مكان غزو نابليون سنة 1798، وبالتالي تأرجحت هذه الشخصية بين تراث الشرق وروحانيته بين غرب لا يؤمن إلا ما صنعته أنامل صانعيه.

1 شريف بموسى عبد القادر: "أشكال الصراع الحضاري في الرواية العربية، مقاربة نفسية"، إشراف: د.محمد مرتاض، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الأدب العربي الحديث، بجامعة تلمسان، الجزائر، 2004، ص 277.

هو المشهد الذي يتكرر وفق تراجع الذكريات، ذكرى عن الآخر، وذكرى عن الذات، يرسم "توفيق الحكيم" من بطله شخصية عابرة لحدود الزمن والمكان لأنها تعبر عن الذات التي تتراوح بين ذكراها عن الآخر وذكراها عن نفسها، «وفرغ الفتى عن تأمل النافورة، فغادرها إلى جانب آخر من الميدان»، يقوم فيه تمثال الشاعر "دي موسيه" وهو يستوحي عروس الشعر... فوقف الفتى ينظر إليه، وقد نقش على قاعدته: "لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم...".[1]

شاهد "محسن" أشياء عديدة، ومن فرط المشاهدة وقع الطالب المسكين الذي هاجر بلاده بغية إتمام الدراسة في شراك الحب، لكنه حب دفين لا يستطيع أن يخرج للعلن لمعرفته المسبقة بدنو أجله... سببه أمر يقين باستحالة اللقاء جوهرا ومظهرا، فعوض أن يتم الطالب دراسته داسته الرومانسية ممثلة في "سوزي" محبوبته الباريسية، فتراه بين المطرقة والسندان. "فبطل (عصفور من الشرق) يعبر عن البعد الروحي والميتافيزيقي بطريقتين: أما الأولى فعندما يعلن عن تمسكه بالإسلام وتعلقه بالسيدة زينب وحرصه على الصلاة، وأما الأخرى فعندما تملي عليه الروحية تقمص رومانسية شرقية في حبه لفتاة المسرح، مما دعا صديقه إلى أن يعجب بمن يحلم ومحبوبته على بعد مترين منه وذلك عندما كان يجلس قبالتها على المقهى ومرورا بكل هذه الممارسات الحالمة (مطارداته / سكنه بجوارها / شراء عصفور ليعبر لها عن حبه...) وحتى عندما قبلته تلك الفرنسية فكأنه بالقبلة نزل من سمائه إلى حضيض الأرض".[2]

1 توفيق الحكيم: "عصفور من الشرق"، مكتبة الإسكندرية، د.ط، د.ت، ص 08.

2 محمد نجيب التلاوي: "الذات والمهماز، دراسة التقاطب في صراع روايات المواجهة الحضارية"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ط، 1998، ص 100، 101.

ليستدرك الطالب وقته قبل فوات الأوان والرواية بمناقشات عامة حول الشرق والغرب مع صديقه الروسي "أندريه إيفانوفتش" محاولين فك خيوط أزمة قال بشأنها "توفيق الحكيم" بلسان بطله "محسن": "إن الشرق قد حل المعظلة في يوم ما... هذا لا ريب فيه، إن أنبياء الشرق قد فهموا أن المساواة لا يمكن أن تقوم على هذه الأرض وأنه ليس في مقدورهم تقسيم مملكة الأرض بين الأغنياء والفقراء، فأدخلوا في القسمة مملكة السماء، وجعلوا أساس التوزيع بين الناس الأرض والسماء معا، فمن حرم الحظ في جنة الأرض، فحقه محفوظ في جنة السماء".

هذه هي الرؤية الشرقية الإسلامية في مسألة الحظوظ والأرزاق، وكيف أن مثل هذه الأمور مبينة في العقيدة على أساس عدالة الله وما كتبته على عبادة المؤمنين، كل شيء بقدر، وبقدرة القادر تصير المحنة منحة.

إذا كانت رؤية المسلمين واضحة في هذا الشأن، فللغرب نافذتهم التي يرون من خلالها مخالفين بذلك رأي "محسن" والذين يدلون بدلوهم مبرزين أن «الغرب أراد هو أيضا أن يكون له أنبيائه الذين يعالجون المشكلة على ضوء جديد، وكان هذا الضوء منبعثا هذه المرة من باطن الأرض، لا آتيا من السماء... هو ضوء العلم الحديث».

فما هو الصديق الروسي يقول لمحسن: «فجاء نبينا "كارل ماركس" ومعه إنجليه الأرضي "رأس المال" وأراد أن يحقق العدل على هذه الأرض، فقسم "الأرض" وحدها بين الناس وبين السماء فماذا حدث؟ حدث أن أمسك الناس بعضهم برقاب بعض، ووقعت المجزرة بين الطبقات تهافتا على هذه الأرض»!.[1]

1 توفيق الحكيم: "عصفور من الشرق"، ص 83، 84.

تلكم هي أهم المحطات التي وقف عندها "توفيق الحكيم" في روايته "عصفور من الشرق" التي حاول فيها رسم لقاء الذات العربية بالآخر الغربي، رؤى العالمين: بعيون عصفور شرقي متدين، في غرب ماركسي متناحر، والمرغوب في الإشارة إليه تتمثل في "أن مؤلف هذه الرواية توفيق الحكيم يهدي هذا العمل إلى حاميته زينب، وهذا له دلالته الكبرى التي توضح رؤية الكاتب الفكرية الشرقية المتطرفة نوعا ما والمبالغ فيها والتي يطرحها في هذه الرواية".[1] هي مسألة تبرز حجم الفجوة التي تعتري فكر الذات العربية المأزومة والواقعة تحت ضغوط الاستعمار الفكري والتدمير الذاتي نتيجة هول الصراع وما ينجم عن ذلك من أضرار.

هذا الصراع الحضاري الذي تجنّد فيه الكثير من الجنود برتبته وكل على حسب طريقته في الدفاع والهجوم، هو صراع يبدو عشوائيا، يسير في كل الاتجاهات إلا أن الواقع يثبت العكس، فمسألة التخلف الديني التي تضمنتها رواية الحكيم تعتبر قضية تسترعي الوقوف عندها باعتبارها شكلا آخر من أشكال الصراع.[2]

2/ قدر يلهو: للكاتب السوري "شكيب جابري" الذي انتقل بطله إلى "برلين" حيث المعسكر الاشتراكي فيقيم تقابلا حضاريا بين الغرب والشرق من خلال العلاقة العاطفية بين البطل وعشيقته "إلزا".[3]

3/ قنديل أم هاشم: لـ "يحي حقي" فإننا نصادف ههنا أيضا جدلية الذكورة والأنوثة، وثنائية الشرق والغرب والجهل والعلم جلية أيّما جلاء ووضوح بحيث يصور المؤلف ذلك التقابل الحضاري بين العقلية الغربية والعقلية الشرقية من خلال التقابل بين شخصية "إسماعيل" الروحانية وشخصية "ماري" المادية.[4]

---

1 شريف بموسى عبد القادر: "أشكال الصراع الحضاري في الرواية العربية، مقاربة نفسية"، ص 277.

2 المرجع نفسه، ص 284.

3 ينظر: جميل حمداوي، صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي الغربي، 26 يونيو 2010.
AL mothqaf.com/index.php.iqadaya.2009/15803 html.

4 شريف بموسى عبد القادر: "أشكال الصراع الحضاري في الرواية العربية، مقاربة نفسية"، ص 284.

حيث يعد "إسماعيل" بطل الرواية ومحركها الأساسي بفضل ما يحمله هذا الاسم من دلالة دينية – إسماعيل الذبيح – وبفضل الحركية التي ميزت ثنايا هذه الرواية والصراع الذي ميز أحداثها بين الذات العربية فيما بينها، وبين الذات العربية والآخر الغربي، وتملي خطورة هذا الصراع وضع البطل في خانة الضياع، فبعد أن غادر وطنه "مصر" ليدرس! تعرف على زميلة إنجليزية "ماري"، حتى مرت سبع سنوات وجد الدكتور "إسماعيل" أنه قد قضاها تجربة، غربة ومحبة، بقضائه لمرحلة الهنا والهناك، لقنته الحضارة الغربية عادات وتقاليد وقيم جديدة، جعلته لا يستطيع الانسجام مع بيئته الشرقية من جديد، فنتجت عن ذلك غربة داخل وطنه واغترابا عن أهله ومجتمعه".[1]

عاش البطل إسماعيل وسط عالمين متناقضين، كل عالم وأبجدياته وألوانه فماذا لو امتزج العالمان في قالب واحد؟ وجسد واحد؟ وفكر واحد؟ بعودة البطل إلى وطنه الأم صادف وجها لوجه معالم الصراع وتجلياته خصوصا وأنه ترك حرية مبسوطة في بلاد الغرب وحياة تؤمن بالعلم والعلماء ليجد نفسه في مجابهة قوة أخرى تناقض تمام سابقتها، ممثلة في الاستعانة بالخرافات والطقوس التي لا تمت بصلة للعلمية والمنطقية، جاءت هذه الأمور الدخيلة لتفسد حياة البطل "إسماعيل" وتعكر أفكاره وتبعثرها، لهذا في قنديل أم هاشم ركز يحي حقي على الجانب السلبي للتدين كأبرز مظاهر التخلف للذات، وحجم الاعتقاد في غيبيات بعيدة عن حقيقة الإسلام، لأنه جسد المستوى المتدني حتى في مستوى الفهم الصحيح للدين".[2]

إن الوصول إلى أرضية تفاهم ومواءمة بين ما يبرزه العلم وما تعتقده المهاترات والمعتقدات ليس بالشيء الهين، إلا أنها ترجيح لكفة الفكر في استحضار الطريقة المثلى للوصول إلى عين النجاح، فلولا علمه الذي أتى به من الغرب، ولولا مسايرته لأهله بتفهمه لهم وإدراكه لحجم تعلقهم بالبركات والمعتقدات لما كان له أن ينجح في مداواة ابنة عمه "فاطمة".[3]

1 المرجع السابق، ص 284.

2 محمد نجيب التلاوي: "الذات والمهماز، دراسة التقاطب في صراع روايات المواجهة الحضارية"، ص 95.

3 شريف بموسى عبد القادر: "أشكال الصراع الحضاري في الرواية العربية، مقاربة نفسية"، ص 284.

وبالتالي هناك دعوة لإمساك العصا من الوسط مع ضرورة "فهم جدلي واع لطبيعة العلاقة بين الشرق والغرب، وللكيفية التي يجب أن تكون عليها مثل هذه العلاقة التي تهدف إلى الأخذ بإيجابيات كلا الحضارتين ومحاولة إحداث نوع من التوفيق بينهما والانسجام".[1]

ما يلفت انتباهنا هو أن الرواية تطرح مفهوما الشرقي للعلاقة القائمة بين الرجولة والأنوثة في المجتمع المصري والتي ما هي إلا علاقة قوة وضعف، وإيجاب بسلب وفوق بتحت، نلمس ذلك منذ البداية حيث كانت منذ البداية "فاطمة النبوية" بنت عم "إسماعيل" ترى نفسها كأنثى أحط قيمة وأقل شأنا من ابن عمها لأنه كان رجلا، فمع أنه كان ما يزال صغيرا غرّا يتعلم في المدارس، إلا أن نظرتها إليه كانت نظرة إجلال وتكبير، ولا تكتفي الرواية بذكر نظرة المرأة الانبهارية بالرجل بل وتظهر بالمقابل نظرة هذا الأخير إلى المرأة في المجتمع الشرقي، فهو يراها شيئا فارغا[2] والجدير بالملاحظة أن الرواية تقلب المعادلة بين الرجولة والأنوثة أثناء التقاء الشرق بالغرب ممثلين في التقاء "إسماعيل" بـ "ماري" هذا الصراع وإن كان بسيطا غير حاد، بين الرجولة والأنوثة إنما يرمز إلى مستوى آخر بين المادة (المؤنث) والروح (المذكر)، فقد حاولت الرواية التوفيق بين الشرق والغرب مما دفع به إلى قلب المعادلة بين الرجولة والأنوثة في كثير من الأحيان، فإذا كانت الخرافة الشرقية المؤنثة والعلم الغربي المذكر نجد المعادلة تنقلب مرة أخرى لتصبح المادة الغربية مؤنثة والروح الشرقي مذكر، مما يدل على عدم وجود علاقة سويّة بين الشرق والغرب، ومن جهة أخرى نجد نهاية الرواية تحرص على رجولة البطل وذكورته التي افتقدها أثناء المثاقفة بـ "ماري" الغرب، فتذكر لنا أنه تزوج ابنة عمه فاطمة وأنسلها خمس بنين وست بنات كما أنه عاش بعد ذلك وهو يحن دائما إلى النساء. فإنسال زوجته لأحد عشر طفلا دليل على رجولته وفحولته والتي كانت عملية المثاقفة قد نفتها عنه.

1 المرجع السابق، ص 284.

2 ينظر: يحي حقي: "قنديل أم هاشم"، دار المعارف، القاهرة، د.ط، 1954، ص 08.

4/ رواية الحي اللاتيني: 1953 بقلم "سهيل إدريس"، إذ تعتبر هذه الرواية إحدى أهم الروايات الحضارية التي تصور مشاعر النقص والدونية تجاه الغرب عامة والمرأة الغربية على وجه الخصوص. فهذه المشاعر نجدها في معظم فصول الرواية من بدايتها إلى نهايتها، ولكن شعور البطل بالنقص لم يكن وليد اللحظة التي وضع فيها قدماه على أرضية "باريس"، وإنما مند أن كان في وطنه الشرقي "لبنان".[1]

هذه الرواية تصور الذات العربية، كيف هي؟ وكيف هي علاقتها بالآخر الغربي؟ فعلى مدار الرواية تتمرآى نسوج رمزية كان بطلها شاب بيروتي (لبنان) هو محور العلاقات التي تحيط بالرواية وشخوصها الممثلة في أمه التي يجدها معه أينما حل وارتحل. فالرواية تصور العلاقة بين الشرق والغرب عبر تشغيل جدلية الذكورة (الشرق) والأنوثة (الغرب)، حيث تصبح هنا المرأة المحك الأساسي لهذه الثنائية وتتحول إلى رمز إنساني دال، فبطل الحي اللاتيني هو الأنا أو الشرق، بينما عشيقته "جانين" هي بمثابة رمز بالآخر أو الغرب لكن العلاقة بينهما تنتهي بالفراق والانفصال على الرغم من رباط الحب الصادق الذي كان يجمع بينهما والسبب في ذلك ببساطة أن الشرق شرق والغرب غرب، ويعني ذلك أن بطل الحي اللاتيني لم يستطع الانسلاخ عن شرقه وجذوره، وما نشأ عليه من أعراف وتقاليد، وقد استوعبت "جانين" جيّدا هذا الاختلاف الحضاري على الرغم من أن عشيقها قرر الزواج بها، وذلك بعد أن عاتبه ضميره حينما أنكر نسبة الجنين إليه، وهكذا يبدو الاختلاف ههنا، بمثابة صراع بين القيم المادية والقيم الروحية، وصراع بين الدين والإلحاد، وبين الأخلاق والإباحية، وصراع بين الرجولة الشرقية والأنوثة الغربية، فبوجود البطل في باريس يبدأ صراعه مع شخصيات غربية متعددة من خلال إقامته لعلاقات معها، وذلك بدءا من شخصية فتاة السينما وانتهاء بشخصية "جانين".[2]

1 شريف بموسى عبد القادر: "أشكال الصراع الحضاري في الرواية العربية، مقاربة نفسية"، ص 166.

2 سهيل إدريس: "الحي اللاتيني"، دار الآداب، بيروت، ط6، 1981، ص 5 – 6.

لقد جاء بطل "الحي اللاتيني" ليصارع الغرب في صورة "جانين" وليس ليتزوجها مع كل ما كان لها من فضل على شخصيته وثقافته، فهو في صراعه (علاقته) معها يستحضر دائما صورة أمّه.[1]

من هذه اللحظة بالذات، يبدأ الصراع بالنمو والترعرع في ذاته بين أمّه (الشرق) وجانين (الغرب)، فيزيده حيرة ويخلط عليه الأمور، فتسارع أمّه إلى جلبه إليها بتحذيره من نساء الغرب ومَكْرِهِنَّ.[2]

فذروة الصراع الحضاري في هذه الرواية، والتي تجسده على المستوى الفردي العلاقة التراجيدية بين البطل وجانين، وهو صراع لا يمكن أن يؤدي إلى تكامل ولكن الرواية هنا تطرحه في جانبه الرمزي على أن نتيجته ستكون ضعفا في أحد طرفي الصراع تقابله قوة في الطرف الآخر، أي إذا كان لابد من استيقاظ الشرق من جهله وضعفه، فهذا يقتضي بالضرورة أفول الغرب وتدهور حضارته، ولا يمكن أن يكون هناك تكامل بينهما حيث تؤكد لنا ذلك الرواية نفسها.

فهي تخبرنا أن ثمرة لقاء بطلنا (الشرق) بجانين (الغرب) كان جنينا ولكنه أجهض ولم يخرج للحياة.

وهكذا تأتي هذه الرواية لتبين عدم استطاعة الالتقاء بين الشرق والغرب، إذ أن هذا الالتقاء لن يولّد إلا صراعا وعداوة كما كان في السابق فلا يمكن لأحد أن ينسى ما اقترفه الآخر في حقه.[3]

5/ رواية موسم الهجرة إلى الشمال: 1966

هذه الرواية للطيب صالح هي من أكثر أعمال هذا الأديب تمثيلا لهذا النمط من الروايات ذات المضامين الحضارية والثقافية التي تحدثنا عنها آنفا فهذه الرواية حسب تصفحنا لها، تتناول بعمق جدلية العلاقات بين الكيانات الحضارية المتباينة المختلفة ممثلة بصورة خيالية ورمزية في شخصيتي الشاب السوداني إلى بريطانيا للدراسة في عشرينيات القرن الماضي.[4]

---

1 المصدر السابق، ص 172.

2 المصدر نفسه، ص 176.

3 المصدر نفسه، ص 158.

4 ينظر: الطيب صالح: "موسم الهجرة إلى الشمال"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دار الجنوب للنشر، (تونس)، د.ط، 1979، ص 45.

والذي يمثل هو نفسه بوصفه سودانيا مزيجا للهويات والكيانات العربية، والإسلامية، والإفريقية مجتمعة وبالتالي فإن هويته المركبة هذه جعلت هذه المناجزة الحضارية بينه وبين الآخر الأوروبي مركبة هي الأخرى، ومعقدة أيضا.[1]

لقد جسد مصطفى الشخصية الاختلاف بين عالمين ظلا يصطرعان فيما بينهما بشتى الوسائل لقرون طويلة. بحسب ما جاء في الرواية ذاتها، لقد استخدم مصطفى سعيد أثناء صراعه مع الشخصيات الغربية كل الأسلحة المتاحة لديه، وكان أقواها سلاح الجنس وسلاح الكذب. المهم بالنسبة إليه هو الانتقام، كان رد فعل طبيعي منه على كل ما اقترفه الغرب من جرائم في وطنه السودان.[2]

تمثل هذه الشخصية على المستوى الرمزي جانبا من الثقافة الشرقية التي تريد الانتقام، لانحطاطها، واستعمارها من طرف الثقافة الغربية، لم يكن مصطفى سعيد فردا وإنما كان يرمز إلى أمّه، إلى جيل أو إلى شرق بثقافته أراد أن ينتقم فقط.[3]

كان صراع البطل مع الغرب صراعا ثقافيا فكريا، أي صراعا بين فكر مصطفى الثاقب الهادف إلى كشف الوجه الحقيقي لحضارة الغرب الاستعمارية، وبين الفكر الغربي المتعفن الذي تفوح منه رائحة الاحتقار والعنصرية والتجهيل، وكل عناصر الهدم والتخريب والاستغلال.[4]

فهذه الرواية تطرح إذن مشكلة الهوية وإشكالية التقابل بين الذاتية والغيرية بإلحاح، أي مشكلة الكيان الحضاري الذي تنتمي إليه بالعالم الخارجي، وخصوصا مع أوروبا فضلا عن مشكلة نظرتنا لأنفسنا، فالمتن السردي لرواية "موسم الهجرة إلى الشمال" يعني هذه القضية من جانبها الأول "علاقة الأنا بالآخر"، و"علاقة الأنا بنفسنا" وهو جانبها الثاني.[5]

---

1 المصدر السابق، ص 45.

2 المصدر نفسه، ص 60.

3 المصدر نفسه، ص 50.

4 المصدر نفسه، ص 46.

5 خالد محمد فرح: "جدل الأنا والآخر في أعمال الطيب صالح"، مقال.

ولعدم الإطالة فصفوة القول تكمن في أن "الطيب صالح" كأنه كان ينظر إلى مسألة الهوية باعتبار أنها معطى ذا كيان غير جامد، فهو قابل أبدا للتحوير، والتغيير، أو هو عبارة عن فضاء ممتد مكون من موجات مرنة قابلة للتشكل يمسك بعضها برقاب بعض، بل يجوز أن تصب وتتمازج فيها عدة هويات أخرى بما في ذلك تلك الهويات التي قد نعتبرها معارضة أو مصادمة لهوياتنا.

ومن هذا المنطلق يتبنى "الطيب صالح" نظرة إنسانية جامعة، وروحية تبحث عن الإنساني المشترك بين البشر في إطار من الاحترام المتبادل.[1]

6/ رواية أديب: التي يروي فيها "طه حسين"، عن ذلك الصعيدي الذي انبهر بثقافة الغرب وحضارته فيقبل بتطليق زوجته ليتسنى له الحصول على منحة الدراسة بالخارج، وحين يصل إلى باريس يعيش حياة لا علاقة لها بما ألفه، ويتعرف على "إلين" التي يكتشف خيانتها فيصاب "أديب" بمرض، ويكتشف حقيقة هذه الحضارة ويقرّر العودة.[2]

ومن الروايات الأخرى التي تحمل في مظانّها رؤية حضارية، وذلك من خلال التقابل بين الحضارة الشرقية والغربية: (رواية أصوات) لـ "سليمان فياض" والتي جسد فيها الكاتب انبهار القرويين المصريين رجالا ونساءا بحضارة الغرب، وذلك في صورة "سيمون" زوجة حامد "البحيري"، والتي كانت تبدو متفوقة حضاريا ومدنيا.

وثمة نصوص حضارية أخرى كرواية "نيويورك 80"، ورواية "حب في كوبنهاجن" سنة 1980 لـ "يوسف إدريس"، ورواية "نجمة أغسطس" 1974 لـ "صنع الله إبراهيم" الروائي المصري وأيضا "في الربيع والخريف" سنة 1984 لـ "حنا مينة" الروائي السوري، ورواية "بدوي في أوروبا" 1985 للروائي الأردني "جمعة حماد"،[3]

1 المرجع السابق.

2 ينظر: طه حسين: "أديب"، دار المعارف، مصر.

3 ينظر: شريف بموسى عبد القادر: "أشكال الصراع الحضاري في الرواية العربية، مقاربة نفسية"، ص 311، 313.

ورواية "فتاة من هيل" للكاتب السعودي "محمد عبده يماني"، ورواية "من دفتر العشق والغربة" لـ "جمال الفيطاني"، ورواية "العودة على المعد" لـ "نبيل نعّوم" ورواية "القاهرة... باريس، ذهاب... عودة" "لسهير توفيق".[1]

ولا يقل حضور قيمة الغرب في الرواية المغاربية عما هو عليه الحال في المشرق وهو من مظاهر أولى عند "عبد المجيد بن جلون" في سيرته الذاتية "في الطفولة" 1957، التي رسمت لنا طفولة مقسمة بين مدينتين (لندن وفاس) متعارضتين أشد التعارض.

رواية "الغربة": 1971 للكاتب المغربي "عبد الله العروي" والتي تصور خيبة "إدريس" في علاقته بـ "ماريا" التي تخلت عن المبادئ التي كان يؤمن بها "إدريس" كالنضال ضد الاستعمار، واحترام مكونات الأصالة المغربية والتشبث بالقيم الدينية والأخلاقية، لكن ماري هجرت "إدريس" إلى أوروبا بمعية صديقتها "لارا" الخائبة بدورها.

ويعني هذا أن الرواية تنقل لنا شخصية "إدريس" في صراعها مع الذات والموضوع على حد السواء، كما تصور الرواية مرارة اليأس، والحيرة بين الماضي، والحاضر، وبين القيم الغربية من ناحية، والقيم العربية والتقاليد، والأخلاق الموروثة من ناحية أخرى، زد على ذلك أن الرواية تعكس الازدواجية الحضارية بما فيها ظاهرة الاستعمار وجدلية الذات والآخر، وعلاقة الشرق بالغرب.

وبالتالي تقدم الرواية وعيا شاملا بالقضايا الاجتماعية المغربية في علاقتها بالحضارة الاستعمارية".[2]

1 جميل حمداوي: "صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي"، مقال.

2 أحمد المديني: "الرواية المغربية، وضع الهوية في العلاقة مع الآخر"، مقال.

يشير "العروي" إلى ديانات الآخر الغربي عندما ذهب البطل إلى "إدريس" إلى "باريس"، وعاين صمت الكنائس واستشعر حال المذنب لحظة الوقوف أمام القساوس... فكانت "المسيحية" صورة من صور الآخر الغربي. يصور "العروي" استقرار الجالية اليهودية بأرض المغرب وتوافق الهوى والنوى، فجاءت رواية "الغربة" حاملة لجميع هذه النماذج والشخوص الروائية بعرض التعرف على معالم الآخر الغربي وكنه أفكاره ومعتقداته.[1]

كما يمكننا رصد معالم التّيمة نفسها – الغرب – في كتابات الروائي المغربي "محمد زفزاف"، وذلك بصفة خاصة في روايته الأولى، والتي يستهلها كاتبها بمقطع شعري من طراز قصيدة النثر يعلن من وراء ذلك عن الأسباب التي دعت بطل "زفزاف" للقيام برحلته من طنجة إلى إسبانيا أي من الجنوب نحو الشمال...

«بيني وبين نفسي، عالم من العرب، من المجالات والخرائط، آه يا إلاهي لا أستطيع أن أتكلم».[2] ثم في ثنايا الرواية تظهر شخصية ثانوية سبق لها أن عاشت في أوروبا لتشجع الشخصية الرئيسية على السفر: "إننا محظوظان في أوروبا أكثر، مما نحن عليه في الدار البيضاء... إني لا أقبل وظيفة هنا في الدار البيضاء حتى لو تقاضيت ألف درهم لأنني هنا أشعر بأن إنسانيتي مفقودة، ولكن هناك تستطيع أن تصير ما شئت".[3]

رواية "نوار اللوز" لـ "واسيني الأعرج":

تعالج هذه الرواية مأساة متأصلة بعمق الهوية العربية، من سوء مصالح البلاد إذ ما يزال العامة يرزحون تحت قيد العبودية فمن عبودية الرق إلى عبودية الاستعمار إلى عبودية المصلحة (القوة والضعف)، ولا حل غير الحرب.[4]

---

1 عبد الله أوغرب: "الذات والآخر الغربي في روايتي "الغربة" و "اليتيم" لـ "عبد الله العروي""، تحت إشراف: أ.د بموسى عبد القادر: "رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الحديث"، تلمسان، 2011 – 2012، ص 188، 189.

2 محمد زفزاف: "المرأة الوردة"، منشورات فاليري، بيروت، ط1، 1972، ص 07.

3 المصدر نفسه، ص 10 – 11.

4 الآخرية في رواية "نوار اللوز" لـ "واسيني الأعرج"، مقال.

وكان "صالح الزوفري" رمز الأنا العربية المثقلة بالهمّ، الغربة، والحزن حتى في عقر دارها، إذ لم تلبث هذه الأنا تبحث لها عن الآخر، ذاته المثقلة بهمّ الوحدة والغربة أو واقعه المزري وفقره...إلخ وبانفتاحه على الآخر لجأ إلى المرأة وإلى التهريب طلبا للقمة العيش، وتمرده على "السبايسي" الذي أغراه بالربح السريع من خلال تهريب أغنامه، لكنه رفض، وتهكمه على الخونة، وقد كانت "لونجا" هي التي عوضته الحرمان، وقد استمرت رحلاته فقد اعتزم الارتحال إلى بلاد المغرب فهو لم يستطع تحمل الخيانة من طرف الآخر "أولاد لاليجو"، وفي الوقت ذاته كانت رحلته إلى الغرب – تغريبته – تحديا للآخر "أولاد لاليجو" ومع ذلك كان مآله السجن على يد النّمس (سليل القياد)، وليد الكلاسيكية التي علقت بالأنا العربية، إذ ظلت الانهزامية نموذجا سليما علق بالأنا العربية في صراعها مع الآخر، بل واصل صراعها مع الآخر حيث كشف أوراق سلاسلة القياد، وفضح خيانتهم، ف "نوار اللوز" نقل لواقع مزري خففت شمعته، لكنه ظهر مؤخرا، بحلة جديدة، وزي أكثر رونقا، إذ "الأنا" (صالح) تستمد حضورها من الـ "النحن" البسيطة، التي تعاني ويلات تعنت "الآخر الغريب" الذي يمثله "أولاد لاليجو" أو بالأحرى الطبقة السلطوية فمن سلطة الاستعمار العسكري، الإداري (الآخر سلسلة القياد).[1]

وكذلك رواية "الأمير" لـ "واسيني الأعرج": قد أفسحت هذه الرواية المجال لصوت الأنا والآخر في التعبير بحرية عما يجول في الأعماق، وقد تم اختزال الأنا والاكتفاء بكلمة "الأمير" فالكاتب يعوّل على لقب الشهرة لـ عبد القادر الجزائري لكن المتلقي اليوم العربي أم الغربي، بات يجهله خصوصا بعد أن ابتعد عن الفترة التاريخية التي ساد فيها هذا اللقب لذا نلمح في حذف الاسم رغبة الروائي ربما اللاشعورية في عدم تحديد "الأنا" وتجسيدها عبر خصوصية "الاسم" الذي يوحي بهويتها المستقلة وبانجازاتها في مواجهة الآخر المستعمر.[2]

1 المرجع السابق.

2 إشكالية "الأنا" و "الآخر" المستعمر، جماليات عنوان كتاب "الأمير": بين الأنا والآخر (مقال).

إذ يصحّ لقب "الأمير" على الأنا والآخر، وبذلك فركز لنا "واسيني الأعرج" على صوت واحد للآخر الفرنسي "المسالم والمتسامح" لعله يمحو ذكريات حرب أليمة استمرت أكثر من مائة عام ويؤسس لعلاقة ودية بيننا وبين الغربي. بيننا اليوم أحوج ما نكون إليها ثمة غاية نبيلة يلمسها المتلقي في الرواية، وهي الرغبة في المصالحة بين الأنا والآخر المستعمر، وقد ساعدت شخصية الأمير "عبد القادر الجزائري" بما تمتعت به من صفات أصيلة قوامها الروح الصوفية التي تميزت بالتسامح والانفتاح على الإنسان أيّا كان.

كما أن الطبيب والمترجم "بواسوني" الذي عمل مترجما لدى الأمير أثناء إقامته في فرنسا يقرر ملازمته، حين فك أسره، وقد حاول أيضا "الأعرج" أن يرسم ملامح ماض لا دورا في إثارة حقد "الأنا" على الآخر خصوصا بعد زوال ظاهرة الاستعمار، لهذا أراد أن يجعل من شخصية الأمير التاريخية أمثولة تصلح للآخر، مثلما تصلح "للأنا" المسلمة في زمن مضى، وزمن حاضر.[1]

وتأتي رواية الأمير في سياق البحث عن أفق حواري جديد مع الآخر لنجد واسيني يكتب نصه في فترة المقاومة من التاريخ الجزائري، فشكلت روايته منعطفا جديدا في اختبار الواقع الإنساني بين التاريخ ومآسيه وتجاوزه من حيث الرؤية والمضمون وإذا كانت لحظة التقاطع بين الأنا والآخر في التاريخ الجزائري والفرنسي الحديث، هي الأساس الذي استند عليه واسيني الأعرج في بنائه للرواية

رواية "اللاز": 1974 التي حاول فيها صاحبها "الطاهر وطار" البحث عن البديل التّخييلي الذي يمكنه من تعديل ميزان القوي، وبالتالي إعادة تشكيل "الأنا" الوطنية المسحوقة و "الآخر" الفرنسي رمز الهيمنة العسكرية لتحقيق هذا الغرض، إنها العلاقة الجسدية (المثلية)، التي حدثت بين اللاز الذي يرمز لـ "الأنا" الوطنية والضابط الفرنسي الذي يرمز للآخر وهو الاتصال (المثالي) الذي يرمز للصّدام بينهما، ذلك أن استحالة إخضاع المستعمر بالقوة حقيقة يمكن تجاوزها بالاستعارة الجنسية.[2]

---

1 المرجع السابق.

2 ينظر: سليم بثقة: "التمثيل الاستعماري أو البحث عن البديل التخييلي، في صراع الأنا مع الآخر"، 2009/12/12.

يقول "فيديريك لاغرانج": «فالرجل العربي مجروح رمزيا وجسديا على يد الغرب، وإذا كان خاضعا من الناحية السياسية، فإنه سيكون مهيمنا من الناحية الجنسية ردا على ذلك... إنه تمثيل استعاري لصراع بين العالم العربي، والغرب الكولونيالي... بوصفه لقاء جنسيا، ومعركة من أجل السيطرة».

إذا قد انقلبت المعايير، وعادت "الأنا" هي الفاعلة تمتلك كامل القدرة على إخضاع الآخر، بعدما أذاقها من قبل كؤوس الذل والانتهاك بقول الضابط الفرنسي: «كان يهوي عليّ بالضرب كلما فزع من مهمته».[1]

لقد أراد الكاتب أن يمعن في إذلال الآخر الفرنسي وقهره وإثبات الأنا أمامه فاعلة في وجه القمع العسكري المسلط على رقاب الجزائريين، وهو نوع من التعويض الإيهامي أو البديل التخييلي، لجأ إليه "وطار" حين لم يتسنّى إخضاع الآخر بالقوة حقيقة، وهو خيار فني يجعل من الأنا تتجاوز واقع الغلبة الاستعمارية عسكريا، وحضاريا لتصبح الطرف الفاعل في المعادلة، ويصبح الآخر غير قادر حتى عن القيام بوظيفة، ويعجز عن معاقبة اللاز – هذا اللعين، ماذا سأفعل به؟ لقد احترق، جريمته تستحق الإعدام الفوري، أنه خلاق وسط الثكنة، وسط الثكنة بالذات الجريمة كبرى الإعدام رميا بالرصاص... وكلب مات، جزء ناقص من الحساب.

ولا يغفل عنا كاتب، وروائي آخر مغربي هو: "نور الدين محقق" في روايته "شمس المتوسط" التي صدرت سنة 2013 بدمشق سوريا بحيث ينطلق بناء الرواية السردي عبر مدخل تمهيدي يخاطب فيه الكاتب الضمني قارئه "المشاغب" مبرزا أن رواية "شمس المتوسط"، قيد المعاينة تصبوا إلى بناء نسق سردي حافل بمكونات حكائية ونصية تعلي من شأن المشترك الإنساني، وتدافع جماليا عن أنبل القيم الحضارية السامية في سياق كوني عصيب يستدعي التسامح والتعددية والانفتاح... بعيدا عن التباهي المجاني، ونمو مرتكزات الذات العربية المجيدة أو تقديس إنجازات الإنسان الغربي بالمطلق.[2]

1 الطاهر وطار: "اللاز"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1983، ص 74.

2 المرجع نفسه، ص 83.

حتى أن عنوان الرواية (شمس المتوسط) هو بمثابة علامة لغوية مكثفة أو مركب اسمي تلعب فيه لفظة "شمس" وظيفة إيحائية مَحرقية ترشح بمعالم النور، والإضاءة روحيا، وحضاريا، أما لفظة "المتوسط" فتحيل على سياق فضاء جغرافي مشترك، يظم الصفتين: الغرب، والشرق؟ فهي في مجملها تستحضر الفارق الحضاري، والقيمي، وتمعن في التوظيف المكثف للمرأة الغربية، وإظهار مدى تشبع الغرب بقيم الديمقراطية، والحرية، والبحث عن الارتواء الثقافي... وفي المقابل نجد رواية (شرق المتوسط) للروائي المغربي أيضا "عبد الرحمن منيف" التي تنزع نحو موضوع الإنسان العربي في مواجهة الاستبداد، وعنف السلطة السياسية، إنها رواية تميل ميلا إلى فضح ضروب المعاناة... التي يتعرض لها المثقفون العرب الحالمون بالتغيير إذ أين تكمن بؤرة الالتقاء فيها من معين المعرفة، ويسيح في نعيم الحرية، ومحراب الجمال الأنثوي، وبين بطل (شرق المتوسط). "رحب" المثقف الذي يكتوي من جحيم السراديب السوداء؟ لعل الجواب يتخلل مقاطع هذا المنجز الروائي: «جئنا إليها باريس من أجل الانغماس في الجو الثقافي العام الذي كانت تمثله ذلك الوقت الذي كان يشع ألقا ويمتد ألقه إلى باقي المعمورة، سياسية وفكرا، فلسفة وشعرا، رواية ونقدا».[1]

إذا اقتصرنا على هذا الصوغ السردي الجزئي، وقارناه بكلام سارد رواية (شرق المتوسط): «آه يا أهل باريس لو جئتم بكتبكم إلى شاطئ المتوسط الشرقي لقضيتم حياتكم في السجون». فإننا نستخلص إلى نتيجة مفادها أن كلا الكاتبين "عبد الرحمن منيف" و "نور الدين محقق"، على وعي ضمني مشترك: فالأول يدين حكائيا المناخ الاستبدادي السلطوي في شرق الوطن العربي، والثاني يشيد فنيا بالنموذج الحضاري الغربي الذي يحلم بتحققه المناضل الشرقي، وكأن (شمس المتوسط) تجيب عن سؤال طرحته (شرق المتوسط) منذ سنة 1972.[2]

1 المرجع السابق، ص 83.

2 ينظر المرجع نفسه، ص 86.

ومن الأعمال الروائية الحضارية المتميزة نجد "أحلام مستغانمي" في روايتها "عابر سبيل" حيث صورت الذات الجزائرية وصراعه مع نفسها (صراع الذات مع الذات)، وصراعها مع الآخر الاستعماري (فرنسا). "من يقتل من؟ "مذهولا" يسأل الشجر. ولا وقت لأحد كي يجيب جبلا أصبح أصلع مرة لأن فرنسا أحرقت أشجاره حرقا تاما كي لا تترك للمجاهدين من تقية، ومرة لأن الدولة الجزائرية قصفته قصفا جويا شاملا حتى لا تترك للقتلة من ملاذ".[1]

هكذا صورت أحلام مستغانمي ثنائية القتل الرحيم والرجيم بين الذات مع ذاتها، والذات مع الآخر لتترك أحلام بصمات سحرية أهلت رواية "عابر سبيل" لأن تعبر القارات الخمس وتبلغ رسالتها التعبيرية المنشودة.

ونجد كذلك رواية "ما لا تذروه الرياح" لكاتبها "محمد العالي عرعار" رواية جزائرية صادرة سنة 1972، أي في بداية عهد الكتابة الروائية العربية بالجزائر فـ "لقد كان الاستعمار الفرنسي – عكس الاستعمار الإنجليزي – ذكيا في معاملته للشعوب الواقعة تحت سيطرته، فهو لا يكتفي بالاستغلال المادي لخيراتها وثرواتها، بل يطمع إلى الاستغلال الفكري لأبنائها بجعلهم تابعين له ثقافيا وحضاريا، وهذا ما يضمن له البقاء طويلا في هذه البلدان، ولهذا حرص على تعليم أبناء هذه الشعوب، لا رغبة في المعرفة ومحو الجهل من هؤلاء – كما يدعي – ولكن حتى يعرف هؤلاء كيف يقولون "نعم" بلغته".[2]

هكذا تمت خطة الاستعمار الظاهرة والباطنية في طمس شخصيات الشعوب، ومحو قيمهم وعاداتهم... فجاءت رواية "ما لا تذروه الرياح" ببطلها "البشير" لتميط اللثام عن هذا الصراع ولكن من زاوية "محمد العالي عرعار" كيف ذلك؟ «أنا لست جزائري والجزائر لاتهمني، لقد أصبحت متلكم فرنسيا، لا علاقة لي بما هو خارج فرنسا».[3]

---

1 أحلام مستغانمي: "عابر سبيل"، منشورات ANEP، الجزائر، د.ط، 2004، ص 41.

2 شريف بموسى: "أشكال الصراع الحضاري في الرواية العربية، مقاربة نفسية"، ص 31.

3 عرعار محمد العالي: "ما لا تذروه الرياح"، الشركة الوطني للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1972، ص 80.

هذه هي الشخصية التي أنتجها الاستعمار الفرنسي بفضل السياسات التعليمية والجهود الهادفة إلى التأثير، وإنتاج نماذج مطيعة وشخصيات مهزوزة على شاكلة بطل الرواية "بشير" الذي تأثر بالمعلم الفرنسي، والجندي الفرنسي، وبمظاهر البناء والمدنية.

شخصية "البشير" عينة لما يمكن أن يقع نتيجة الفعل بالتأثير والتأثر حيث "تنهض العلاقة الاستعمارية المقترنة بالرسالة التحضرية من فكرة الفوقية والدونية الحضارية، وباتجاه هذه الثنائية الضدية يتشكل الفرق الحضاري بمنطق القوة والضعف على أساس السيطرة والاستسلام، والمؤثر والمتأثر، وانصياع "البشير" يدخل ضمن هذا الإطار".[1]

إن الظروف التي نشأ فيها "البشير" من قهر كولونيالي، وقوة استعراضية سحرت عقل "البطل" وقلبت شخصيته، فقد ترك كل ما في جعبته من ماض مليء بصور الحرمان والعجز وغدا فرنسيا بِاسم "جاك"، وتناسى أصله وفصله عن قصد.

هذا يقال عنه "حركي" عند الجزائريين، وممقوتا من الفرنسيين أنفسهم، فأضحى ضائعا ضياعا مزدوجا، مثله كمثل الغراب أسود في لونه غريب في أمر مشيته... كل هذه الازدواجية في الشخصية عانى منها "البطل" على مدار الرواية حيث كان يحسب نفسه خبيرا بحفظ الأسرار، وتركها حبيسة قلبه ومحفظته، لكن هيهات... لقد نسي البطل، وطنا كان يوما يمشي فيه ويستنشق هواءه، نسي "والديه" واستشهادهما على أيدي الفرنسيين، غيب عنه زوجته "ربيعة" تنكر لابنه "باديس" رمز العلم والعروبة والإسلام، أنكر أخوة "العباسي"، تلعثمت خطى "البشير" ففقد البشرى والبوصلة إلى أن رمته أحداث الرواية إلى "فرانسواز"، وهي المرأة الفرنسية التي احتلت حياة البطل كما احتلت أمها سلفا أرض البشير وأجداده. وكما هي عادة المحتلين فكريا أذعن "البشير" لهوى أرادته هي بطريقتها الخاصة، "فهي لا تميل إليه كما تميل المرأة إلى الرجل وإنما تميل إليه كما يميل العالم على مادته وكما يميل الدارس على موضوعه، فهي تعاشره لتستطلع منه أسراره...[2]

1 شريف بموسى: "أشكال الصراع الحضاري في الرواية العربية، مقاربة نفسية"، ص 178.

2 عرعار محمد العالي: "ما لا تذروه الرياح"، ص 139، 140.

وهي ترافقه لتستلم من كلامه مادتها، وهي ترضي بتصرفاته لتكتشف سلوكه، فالبشير – كما يشعر – هو بالنسبة لها موضوع للدراسة والاكتشاف والتجربة ولا شيء آخر".[1]

عرفت "فرانسواز" عن "البشير" كل شيء منذ الوهلة الأولى، مستغلة تيهه وعماه في أرض غير أرضه، بِاسم غير اسمه، لتعرفه حق المعرفة، وحتى تقرر بداية رحلة عمل سيكون فيه "البشير" موضوعا للتجربة والملاحظة، بالرغم من علمها بكل شيء إلا أن "فرانسواز" أبدت جهلها وسذاجتها، كما كانت تملك مكتبة ورقية تحفل بكتب حول الجزائر وما يحدث فيها من أحداث، كما أنها لا تتوانى في إظهار حزنها لفراق الزوج المتوفى غير آبهة به على الإطلاق، لقد كانت على دراية بمرضه إلا أنها تركت عواطفها وراءها ولم تعره أدنى اهتمام.. في تلك الظروف شغلت الأحداث العسكرية والسياسية التي تحدث بالجزائر حيزا هاما، والمصاحب لفترة مرض "البشير" الذي كان مع موعد لاكتشاف ذاته بعدما كشف عن القناع الفرانسوازي بقولها: "وهل تتذكر تلك التنزهات التي كنا نقوم بها في مختلف أنحاء باريس، وخاصة تلك التنزهات في الأحياء الفقيرة، حيث يعيش المهاجرون؟ هل عرفت الآن لماذا كنت أصر، وأطلب منك أن تصاحبني فتذهب ونتجول في تلك الأحياء؟ إنني كنت أحاول معرفة شعورك، وتصرفاتك، حينما ترى إخوانك المساكين يعملون ويكدّون"[2]... إذا كانت فرنسا قد ذوبت فؤاد "البشير" وجعلت منه واحدا يتكلم بلغتها ويعرف دروبها وأناسها، فذلك لأنه متأثر لا يستطيع التمييز بين وطن مستدمر وآخر خاضع للاستعمار. لقد كانت له عقدة الدونية تجاه غرب تمثله "فرانسواز" بطريقة تعكس الصراع الحضاري الأزلي بين سكان الشرق والغرب الطامعين إلى محو شخصيات الشعوب وجعلهم دمى تحركها أيديهم واملاءاتهم متى شاؤوا وكيفما أرادوا.[3]

1 المصدر السابق، ص 140.

2 المصدر نفسه، ص 206.

3 عبد المجيد حنون: "صورة الفرنسي في الرواية المغربية"، د.م.ج، الجزائر، د.ط، 1986، ص 197، 198.

كانت لـ "بشير" فرصة التعرف على الذات العربية والجزائرية بالتحديد بعدما ابتعد عن كل ما يمت للعرب والوطن الأم بصلة، إلى أن تراكمت الأحداث فوق رأسه، ووهن بدنه... فكانت له فرصة الخلو بذاته وجلوسه مع نفسه، يستعرض شريط حياته، يعري حقيقته التي ظل نفسه مستعرّا بها[1] ببعده عن وطنه الأم عرف أن ذاته لا يمكن لها أن تعيش العمر كله ناكرة جاحدة .. وبإدراكه الوجه الحقيقي لـ "فرانسواز" تيقن أنه كان رمزا للضياع الفكري والنفسي وباستقلال الجزائر عرف أنه قطعة من هذا الوطن.[2]

عاد الوطن إلى أرض الوطن وفي عودته ترسيخ لعنوان الرواية فـ "ما لا تذروه الرياح" أي ما لا تستطيع رياح الحضارة الغربية أن تزيله من قيم وروابط أولية أصلية للبطل بأهله ووطنه وتقاليد العربية الجزائرية فمهما تغرب وتشرد وتنكر لوطنه تحت تأثير هذه الحضارة الاستعمارية فلا بد له في الأخير أن يرجع إلى المنبع الذي رضع من قيمه صغيرا ونشأ على تقاليده وتربي على أعرافه".[3]

رواية "ما لا تذروه الرياح" رواية ألقت الضوء على فواجع الصراع بين المستدمر والمستعمر وأوضحت رؤية مؤلفها بخصوص الصراع الحضاري بين العالمين، وآثار الاستيلاب الحضاري الممثلة في شخصية "البشير" كنموذج يطغى عليه ما طغى على البعض في تلك الفترة.

وعموما فإن جميع الروائيين العرب الذين انجذبوا إلى الغرب بلوروا الرؤية ذاتها، كل منهم وعلى طريقته قدم صورة خصوصية لعالم أغراه، تصبّ الصور مجتمعة على الأغلب في رافد مشترك أي في جنسية المرئي كوسيط لتفجير المكبوت واختراق المحرمات[4].

1 عرعار محمد العالي: "ما لا تذروه الرياح"، ص 135.

2 المصدر نفسه، ص 219.

3 شريف بموسى عبد القادر: "أشكال الصراع الحضاري في الرواية العربية، مقاربة نفسية"، ص 298، 299.

4 نعوم تشومسكي: "النزعة الإنسانية العسكرية الجديدة"، تر: أيمن حنّا حدّاد، دار الآداب، بيروت، د.ط، 2001، ص 122 – 123.

من خلال ما تقدم يمكن القول أن الرواية العربية وجدت في معالجتها لعلاقة الأنا، والآخر فرصة لطرح عدة قضايا تتعلق بمسألة القهر، والتسلط، والتمييز العنصري والاستغلال، والخداع، حيث تعددت زوايا الرؤية فهذا الآخر المحتمل الذي يمارس لعبته المفضلة مع الأنا الوطنية، والقومية في ظل الهيمنة العسكرية، والثقافية، والاستيلاب الحضاري يمكن إخضاعه بواسطة أنماط من العلاقات والبدائل التي تكون تعويضا عن العجز، ومؤشرا على الانتقام في ظل لا معقولية الطرح الغربي من خلال الخطاب الرسمي الكولونيالي أو ما بعده، وحسبنا هذا ما جاء على لسان "ونستون تشرشل": «نحن لسنا شعبا فتيا له سجل بريء، وميراث هزيل بل لقد استأثرنا... بحصة غير متكافئة أبدا من ثورة العالم، وتجاربه، ولقد حصلنا على كل ما نبتغيه من الأراضي كما أن ادّعائنا أننا تركنا نرتع في لذة، لا يقضّ مضجعنا أحد، لذة التمتع بممتلكاتنا الشائعة الرائعة التي اكتسبت بالعنف أساسا، وحوفظ عليها بالقوة إلى حد بعيد، إن ادّعائنا غالبا ما يبدو أقل معقولية للآخرين، مما يبدو لنا».[1]

مع استمرار المأساة تظل الأنا القومية مشدودة إلى الصراع مضطرة أن تصارع كي تنتصر لإثبات وجودها، ولو كان ذلك على المستوى التخييلي، هي الذات والآخر عند روائي العصر الحديث لكل جغرافية تاريخ ولكل تاريخ جغرافية أدب يحكيه ويرسم أناسه ومآثرهم وما خلفوه ويريدون البوح به سرا وجهرا.

1 المرجع السابق، ص 123.

الفصل الثّاني:

صورة الأنا عند رشيد بوجدرة من خلال رواية المرث

الفصل الثاني :صورة الأنا عند رشيد بوجدرة من خلال رواية المرث:

تعتبر الرواية الجزائرية جزءا لا يتجزأ من الرواية العربية، عرفت تطورا وازدهارا لاسيما في العشرية الأخيرة، نتيجة لما مرت به الجزائر من أحداث وتغيرات جذرية مست جميع مناحي الحياة ،طالت يدها حتى الأدب، فالتجربة الروائية الجزائرية رغم حداثة نشأتها تمثل أهم التجارب التي شكلت المكتبة الروائية العربية بلسانها العربي والفرنسي ،وقد استطاعت هذه التجربة أن تعبر الحدود ليترجم الكثير منها إلى لغات عدة كما عبرت هذه التجارب إلى المشرق فأصبحنا نقرأ نصوصا جزائرية منشورة في بيروت ومصر ودمشق.

ولعل السبب الجوهري في تطورها وبلوغها هذا المستوى الراقي يعود في الأصل إلى أن "....آفاق التطور مفتوحة للرواية العربية في الجزائر أوسع سواء على صعيدا الواقع الاجتماعي الذي وفر إمكانيات تعبيرية تقدمية هائلة أو على صعيد التفتح على الثقافات الإنسانية وعلى الانجازات الثقافية في الغرب وفي الوطن العربي."[1]

ولعل أهم الأسماء التي صنعت الرواية الجزائرية وارتقت بها: عبد الحميد بن هدوقة برواية ريح الجنوب، الطاهر وطار بروايته اللاز أمين الزاوي ،واسيني الأعرج، الروائية أحلام مستغانمي في ثلاثيتها الشهيرة "ذاكرة الجسد"، "فوضى الحواس" ، و"عابر سبيل" ....وغيرهم.

وأهم ما يميز هذه النخبة أنها لا تعرف على وتر واحد ولا على آلة سردية واحدة فكل واحد منهم أجترح لنفسه مسلكا خاصا انشغل بتعبيده حتى أصبح فضاء الخاص به، و"رشيد بوجدرة"* يعد من بين الوجوه الروائية في الساحة الأدبية الجزائرية وسنتطرق لروايته المرث الصادرة سنة 1984 ، وسنتناول صورة الأنا والآخر من خلال هذه الرواية.

---

1 واسيني الأعرج، "اتجاهات الرواية العربية في الجزائر" ،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط1، الرعابة، 1986، ص 601

*رشيد بوجدرة، ولد عام 1941م في مدينة العين البيضاء، ذو توجب شيوعي ماركسي، عمل في التعليم وهو محاضر في كبريات الجامعات الغربية. كتب رشيد بوجدرة 30 عملا من قصة وشعر وروايات ومسرح ومراسلات ودراسات نقدية منها: الحلزون العنيد، الإنكار، تيميمون، الربيع.

ملخص الرواية:

تعد رواية "المرث" أو النقع أو الإنقاع مسرحا حافلا ومجسدا لثنائية الأنا والآخر في علاقتها وتشابكها إذ نجد رشيد بوجدرة من خلال نصه الروائي "المرث" ينقل لنا ما حدث لرشيد الشخصية البطل الذي يروى لنا ذكرياته ويصف لنا أبوه حسان وزوجة أبيه اليهودية هانويات غزلان خياطة نسائه الثلاث أنجب منها ابنا وابنة اعتنقت الإسلام بمحضر شاهدي عيان ولم يسجل ذلك في أي وثيقة شرعية طلبت منه الزواج، قال لها أنه كتب العقد والصداق، كان يكذب ويتحدث كذلك عن إفلاس أبيه أيضا دخوله للسجن بعد صفع عقيد فرنسي على عين الملأ وكان يجوب العالم ويرسل من حين إلى آخر بطاقات بريدية لزوجاته الأربع أو (الخمس) كان لا يكتب على ظهر الورقة سوى اسم المكان والتاريخ والإمضاء تحدث كذلك عن زوجته الأولى (بايا) أي أمه التي كانت تقوم بشؤون المنزل العتيق والتي كانت تساعد في تمريض الزوجة اليهودية التي أصابها سرطان الحلق، ....تحدث كذلك عن نحنحة العمة فاطمة التي قد ماتت تحت حافلة الترامواي الكهربائي وتحدث عن قضائه هو كل الصيف في الدار، فقد رصد "رشيد بوجدرة" قضية دفن زوجة أب رشيد جراء ذلك، كذلك تحدث عن اكتشاف رشيد العم جلول مشنوقا، وتحدث كذلك عن أخوه عبد الله الذي مات وقد كان كثير الثمل، وتحدث كذلك رشيد عن ماريا التي كان يحكي لها ذكرياته، فقد حاول رشيد جزق ذلك الصمت الذي رصصه أفراد العائلة كلهم حول هذا التعطش العائلي والمرث والمرس والنقع والإنقاع، ومن خلال هذه الدراسة الوجيزة نرصد مختلف تجليات الأنا والآخر في الرواية.

المبحث الأول: الصورة النفسية:

يقول رشيد :"وإذ أنا أنظر إلى نفسي على صفحة المرأة فتتصاعد من غياهب الماضي الأيام إلي فأتيه حائرا بين الحيرة (لماذا لم يتزوج أبي تلك المرأة اليهودية التي أنجبت له طفلين ذكرا وأنثى وقد اعتنقت الإسلام بحضور شهود عيان؟ لماذا هذا الرفض وقد شاخ هو وشاخت اليهودية وكبر الأبنان) والحيرة(كيف هذا الرجل الذي يقول الناس عند أنه أبي وهو الآن ضريح الفراش ليس له ما ينفقه على نفسه إلا مما تيسر لي من كل شهر من مال أمده به، وكيف يمكنه تجاهل أمر العشيقة اليهودية وقد تقدمت في السن وأصبحت مسألة موتها القريب مشكلا عويصا لأنني لا أعرف في أي مقبرة يحق لها أن تدفن شرعيا في مقبرة المسلمين ؟ أم في مقبرة اليهود؟)... وأنا على هذه الحال أسبخ قطن الأيام وأجازف بنفسي وأنزلق من سؤال إلى سؤال وأنا أمام المرأة تذكر و أريش صوف الأعوام وأغتاظ لجنون أبي...."[1]

رشيد هنا مغتاظ لغطرسة وصلابة أبيه، لكن دون جدوى فيعود رشيد على حقد أبيه عليه من أن كان طفلا ويتيه في خرائط الكلمات والذاكرة ويبحر في معادلات المنطق الغريب.

عندما كانت زوجة الأب اليهودية في حالة احتضار كان رشيد يتلمس الرسالة من خلال قماش الجيب إذ يقول رشيد :"ملتهيا بلف خيوط أحاديثي في تلافيف ذهني على كبة هذياني الداخلي الصاخب ،أرسل عمي المكتوب وتركني أتخبط في كيفية إيجاد حل مرض لهذه القضية".[2]

كان رشيد ملتهيا بلف خيوط أحاديثه الداخلية وحواراته الذاتية في تلافيف ذهنه على كبة هذيانه الصاخب كان يكفر ويلعن اليهود والمسلمين والمسحيين ملصقا فيهم كلهم تهمة الجبن والخيانة التي أدت به إلى هذا المأزق، يقول رشيد:"كنت أشعر بوجع مضمن يؤتيني يدخل البلبلة إلى ذلك الأرب الذي كان يعيش عقلي تلك التي لا يعرفها إلا من عاني من كتمان السر مثلي.[3]

---

1 ينظر: رشيد بوجدرة :"المرث" المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،دط ، 1984، ص 06 – 07

2 المصدر نفسه، ص 08

3 المصدر نفسه، ص 09

يقول رشيد :"أستفيق حتى تتبدد أحلامي وكوابيسي وأجد نفسي أما هذا المشكل العويص المتصل بدفن زوجة (عشيقة) أبي وقد أشرفت على الموت، وانتهى بي الأمر إلى تمزيق الرسالة التي بعث بها عمي إلي من القرية مغتاظا غاضبا عليه وعلى لوعه بأمور المحتضرين والأموات... ورغم غضبي هذا وتمزيق الرسالة ورفض استنشاق كل الروائح المتعالية من المطبخ وكل الأصوات المتهافتة من البهو لم أتمكن إلا من زج نفسي في حالة من الاندهاش المبهمة يخفّها خليط من الألم والضباب...."[1]

دخل رشيد في حالة الاندهاش والحيرة والإبهام كان في حاجة إلى الكثير من الحيطة فقد كان يشعر بضرورة الإمعان والانتباه المتمركز لاسترجاع الاتصال بجسمه وعقله فقد أزهقته الهواجس والكوابيس منذ أن تلقى الرسالة ،إذ يقول رشيد :"أصبحت أبحث عن استرجاع اتصالي بالأشياء الملموسة والتلمص من الأوهام المزدحمة في عقلي ازدحاما يبهرني وميض لمعانه وطفاحة غزارته، الضوء يلتهم كل ما يصادفه في غرفتي (عمك إسماعيل الحساب الموظف المتقاعد....) التي كانت نواتها تحتوي فيما عدا الكثير من الفراغ والأسلاك والشرائط والحبال التي أستعملها أنا بنفسي لتجفيف نسخ الصور السلبية بعد تحميصها، سريرا يساعدني أحيانا على الأرق المزمن الذي كنت أعاني منه".[2]

رغم كل هذه التراكمات الرثة لم يعرف كيف يرد على رسالة عمه ، لم يعد شيء يهمه بعد وفاة أخيه الأكبر حتى ولا تصرفات زوجة الأب الثانية، فقد كان رشيد يهرب ويركن داخل متاهات الإبهام المطلق فترن أدناه ويتصور جرس إحدى عربات الترامواي، فقد كان كل شيء حوله في تدحرج وانقلاب ولكنه يقول:"الذنب ذنبي ولا مذنب إلا أنا ذلك أنني مزقت الرسالة وتذكرت تفاصيل مأتم الأخ الأكبر ولم أر منه شيئا وقد سمعت عنه الكثير ".

ويضيف على ذلك ويقول:"ما العمل مع زوجة الأب المسكينة وهي على فراش الاحتضار؟".[3]

1 المصدر السابق، ص 12

2 المصدر نفسه، ص 12 - 13

3 المصدر نفسه، ص 19 - 20

قد كان حسان يكره رشيد وهو طفل فهو يقول:"استرجع الذكريات وأحاول فهم وفك اللغز الذي ركبه لي أبي خاصة ولكل أعضاء العائلة عامة وقد كان يكرهني وأنا طفل ولم أفهم سبب تلك المعاملة السيئة وقد أصبحت رجلا في عنفوان العمر، ولا تفارقني قط تلك التصرفات البذيئة، التي كنت أنا دون سواي ضحيتها رغم أن الأب أنجب أكثر من ثلاثين ابنا م يكن يكرههم ولا يحبهم".[1]

كان يجلس رشيد ويتمسمر فوق مكتبه كالتائه راجعا إلى الوراء من خلال كل الذكريات إلى وراء الوراء لتصحيح أخطائه التاريخية ونكساته العاطفية وانبهاره بهذا الماضي وبهذا اللغز الأبوي الذي يستعص على كل حل إذ يقول:"انتهى ذلك الزمن المقيت الذي كنت أرفض فيه العالم ولا أقبله كما هو هكذا علمني أبي وأنا أعمل في مخزنه الضخم مثلي مثل العمال لا يرحمني ولا يشفق علي ،لن أقبله بعد وعلي أن أفهم لماذا هذه المعاملة :هذه المشاكسة، هذا الطغيان! ....كثيرا ما ساورتني فكرة قتله وفي آخر لحظة جبنت، يا ما كنت أبكي في الظلام.....ما كان علي لو كنت استحي من حلي أن أهدي نفسي وأرفق بأبي لكن كيف حل مشكل دفن الزوجة اليهودية؟"[2]

القلق وقلة الحيل والتصبر والعتب الشديد على الذات ووطأة تعيسة تدهس رشيد وتؤثر فيه، تجعله يشعر بشعور منفلت متفجر هذا الإحساس الكريه الذي ينتابه كلما انطفأ النهار الهامس فيفقد وعيه فقد كان منهوكا محموما، مهموما مغموما إذ يقول:

"قد توغل القنوط والبغضاء في أحشائي رحت باحثا عن أخي الأكبر ملاحقا إياه راكضا وراءه، وقد نمت في ذقني لحية كثيفة لم أحلقها لعدة أيام مضت وقد تسربلت بثياب قدرة غير لائقة رحت وقد كنت في حاجة إلى النوم، وأنا أتشاحب تحت كابوس الأرق".[3]

وعندما كان يتخلص رشيد من ندماء أخيه وتملقهم كان يأخذ بذراع أخيه ويجرجره إذ يقول:"قاهرا نفسي معذبا جسمي"[4]

1 المرجع السابق، ص 24.
2 المصدر نفسه، ص 25 - 26.
3 المصدر نفسه، ص 47.
4 المصدر نفسه، ص 52.

وعندما كان يتذكر قمر يقول رشيد:"رنت ضحكة قمر رنة في جسدي ومع ذلك أحسست مخي مائعا في نهاية ذلك النهار الصيفي ".

ويضيف :"قد ازدحمت في رأسي أشياء غريبة:أمعاء معدنية بين خضرة وزرقة دبقة، فاترة، مسلسلة....ثم استرجع وعي ويتفجر في قلبي صيف مالح يهدأ من خلاله تعب النهار، ولوعة الحنين إلى الأب الغائب وقرح الآلام المنغرزة في لوعة عبد الله وقلقه الوجداني....يتفجر في قلبي ذلك الصيف المالح".

وعند كبره كان يجمع كل البطاقات وكل الصور، وينظر إليها ويفرزها ويتفحصها إذ يقول:" أصبحت عندي بمثابة نقاط الجدة والعلامات بالنسبة لتركيب الماضي المتفكك....تحوم وتدوم كالأشباح ....وإن كانت عبارة عن سلسلة من الجزئيات التي تكاد قد محتها الذاكرة وعوضتها بأخرى مغلوطة حتى ولو كان ذلك ناتجا عن مجرد انتشار استيهاماتي داخل عصيبات ذهني في حركتها المتكررة."

فقد كان رشيد يعاني من تمزق في الرأس إنها الاستيهامات والذكريات التي كانت تختفي بين الفينة والفينة في طوفان من النقاط الصغيرة أو الأقراص الصغيرة تشكل شبكة من الخيوط الوهمية ،كان يفعل ذلك لفهم الحقيقة والتوغل فيها ،إذ يقول رشيد:" لأبرهن لنفسي أنني لست جبانا ولا حقودا (البحث عن الأب المفقود بغض النظر عن الأخ المتمرد الذي كان يقضي ليليه في....) وهكذا كل يوم عندما يشرع النعاس في خلط أفكاري ومزجها في كبة مؤلمة لا طاقة لفكها، مملوءة هذه الكبة بالحدس الرهيب والتخوف من شبح الماضي وأحداث الحاضر....فأستفيق وسط الليل أصبح وأرجف وأخاف خوف الأطفال....وأشعل المصباح وأتقيأ وأعرق وأتألم وأتعب واستكمل شظايا الليل مؤرقا متذكرا تلك الفاجعة والحادثة التي ذهبت ضحيتها العمة فاطمة وقد مزق جسمها الترامواي..."[1].

1 ينظر: المصدر السابق، ص ص 53، 56.

لم يستطع أبدا رشيد التخفيف من هذا الشعور المجنن بل هذا الإحساس كان يبقيه متيقظا (الأشباح والوشوشة والهواجس).[1]

يقول رشيد:" لعلني أجد في ذلك الفزع الطفلي نوعا من اللذة منقطع النظير يتمادى طعمه في فمي أياما وليالي بعد كل كابوس وعندما أقيم في الضيعة حيث المنزل الكبير، فتخف عني استيهامات فاسمع أقدام العمة فاطمة المعرجة المتثاقلة في الطابق السفلي) والرموز المتقطعة الوامضة التي تتربص بي لتغزو جسمي وتبهر وعي وتبعث في نفسي القلق والهلع، لذلك وأنا واع بالخطر، فإني أنهض بسرعة من مجلسي..."[2]

لكن رشيد كان يعود إلى الغوص في استرجاع ذكرياته ويتشوق إلى القرية ويتذكر أصياف الجفاف ....كذلك كان يعاني من خداع الحبيبة،إذ يقول :"أنا لا عطف أتمتع به ولا ما يحزنني لقد خدعتني الحبيبة "[3].

فقد صار رشيد حساسا عاطفيا منشرح الصدر وكان متخوفا، إذ يقول :"كنت لا أصر على موقفي لا خشية الإخلال بذلك التوازن المهلهل القائم بيننا بل لأني كنت دوما متخوفا من أن أصبح في حرج ومن أن أجد نفسي مرة أخرى في بلبلة وارتباك وجها لوجه أمام الواقع وكنت شاعرا شعور الحدس والتخمين إنه لو دفعني التذبذب والإنذعار إلى محاولة الإطلاع على ذلك الواقع إطلاعا كاملا لبان لي أنه واقع مرعب مخيف".

يعود ويتحدث عن حبيبته :"ولعل ذلك يجبرها على العدول عن شن غاراتها الليلية في أرجاء الغرفة وعن صراعاتها الغرامية التي كانت نتيجتها الحتمية جولان الأنثى الحامل جولان الطاووس الذي يتبختر زهوا وكان هذا المنظر يبعث في نفس الاشمئزاز والنفور إذ كنت عاجزا عن تحمل رائحة الأنثيات الحاملات ورائحة النساء الحبليات (التضخم السكني)![4] لا لقد كنت عاجزا عن سوء

1 المصدر السابق، ص 56.
2 المصدر نفسه، ص 57.
3 المصدر نفسه، ص 61.
4 المصدر نفسه، ص 96، 98.

معاملتها والإساءة إليها، ولذا كنت أفضل الخضوع لقانونها فاه بذلك لنفسي الشعور بفشلي الذاتي ولم أكن قادرا على تحمل مسؤولية ذلك الفشل ....فانعزلت في هذه الشقة الصغيرة التي كنت أسكنها"[1]

كل هذه الظروف والأحداث والأوضاع فقد كانت ماريا تزوره كان يتحدث معها عن أمه وأبيه وزوجاته وعشيقاته والعمة فاطمة ،فكان يبسط عليها فكرياته.

يتحدث رشيد مرة أخرى عن شعوره إذ يقول:" فشعرت أنا الآخر في ألم وعناء بشيء من ازدواج الشخصية على غرار ما تشعر به تلك المرأة ....فماريا تشبهني ،فقد صرت مزدوجا وهي أيضا وقد أثر في نفسي ذلك أيما تأثير لأني ما انفككت إلى ذلك الحين اعتقد كل الاعتقاد بأنه ليس هناك ما من شأنه أن يثير أحدنا مثل الآخر".[2]

ثم يعود ويتحدث عن حبيبته :"وبقيت وفي نفسي رغبة إيلامها باءت أحبسها في حجاب أبيض تتبرج داخله كالإخطبوط المتعدد الأصابع آه لو حققت هذا الحلم الذي يحزنني في ذلك العرين الذي كانت ماريا حرة فيه دائما في أعمالها وحركتها"

ويقول رشيد أيضا:"فكنت أشرع في الكلام مناجيا نفسي فيما كانت العشيقة هي الأخرى مفتونة فتنها صوتي الرهيب المتعب المليء منذ ذلك الوقت بالرغبة في اليوم الذي سأحاول الاستسلام إليه بعد هنيهة وأما أنا فقد كانت محصورا بين الهذيان اللفظي والصمت القائم فأخشى أن تسيل كلماتي فتعاكس في سيلانها تيار ضميري المحدد بمادته الخاطفة ذاتها والذي كان قد عصره تسلسل الأحداث في زمن كان في نهاية المطاف، زمنا وهميا خداع ،لقد كانت تبغي وهي مشدودة إلى الكلام الذي يخرج من شفتي أن تبقيني خارج العالم فتتسبب في خرابي وتحملني على التمتمة والتعتعة[3]، ترى ما عساني فاعل أمام هذا الصمت بل وأمام هذه اللامبالاة التي كانت تعينها على تعزيز وحدتها

1 المصدر السابق، ص 98.

2 المصدر نفسه، ص 100.

3 ينظر: المصدر نفسه، ص ص 103، 105.

الشخصية وعلى فصلها عن وحدتي أنا؟....متعللا بأني نسيت حوادث قصتي بالكلام المقطع – عن التحرك والإدلاء بإشارات تعبر عن غضبي وعن عسر إثباتي لذاتي إثباتا تاما لدى الحبيبة المستاءة الحرة وقد وبخ أنفاسي كساد حالي وميله إلى الانتقام وصار وجهي في وضع ميؤوس منه".[1]

يقول رشيد:" والهوس والسلب يتغلبان علي فاكرهها (ماريا (مريم)؟) وأحتج عليها في نفسي أرفض هذا الاقتحام للمنزل المخفي الذي لم يعد يسكنه إلا الشيوخ والمرضى ،أرفض هذا النوع من الاغتصاب لأمور حميمة كنت أريد دوما إخفاءها".[2]

ثم يقول:" فجأة لم أعد أرى شيئا نوع من الكمنة يقتحم أجفاني كأنني أصبت بالعمى كسرا من الثواني ،هذه عادتي منذ أن نشأت وذلك كلما خفت أو اصطدمت بحاجز ما أو وجدت نفسي أمام أتفه عرقلة مبهمة يعج الفضاء أمامي بذبذبة مسمارية الحدة كخط منحوت منحرف، ثاقب الصمت يخيم علينا حفيفا (الأوراق) ويزيد هذا الانطباع قوة وضراوة وضوضاء...."[3]

ثم ينتقل إلى الحديث مع عمه حسين إذ يقول:" أجد نفسي وجها لوجه مع العم الحسين، فاضطرب واتركه يثرثر ويهزأ بمأساة زوجة عشيقة أبي اليهودية وهي في حالة احتضار ،لا نعرف كيف نجد لمشكلها حلا خاصة وأن الأب بتجاهل ويتناسى كل ما يخص هذا الأمر التي رأيتها قبل عبور المدينة حيث أتيت لقضاء بعض الأشغال العاجلة تاركا أمي ومريم تتعاونان في القيام بأشغال المنزل وأمور التمريض بالنسبة للشبحين (أبي حسان وزوجته اليهودية :حسيبة هانريات"

فرشيد يعاني من العياء وعقله ممزوج بكية من الأسئلة المؤلمة والمشاكل المزعجة منها كيف يحل مشكل المسكينة اليهودية؟ وما هي علاقة زوجته بعشيقته؟ فهو منهمك في محاولة حل كل هذه الإشكالية العائلية المعقدة على خلاف إخوانه وأخواته فهو يقول:" لا طاقة لي بفكها خاصة وأن إحساسات مختلفة بدأت تمتزج داخل ذهني متناقضة متضاربة كلها!".[4]

1 المصدر السابق، ص 106.

2 المصد نفسه، ص 139.

3 المصدر نفسه، ص 147.

4 المصدر نفسه، ص 157 – 158.

كل هذا لا يخفف ذلك الشعور المجنن، المرعد ،وكل هذا التراكم في رأسه يتناطح ويقهقره فيزيد من درجة الحساسية:يقول رشيد:" وأحس إحساسا ضعيفا بضرب من الانتحاء الذي يقيني متيقظا لأني لا أريد أن أترك نفسي تمتصها الرموز المتقطعة الوامضة التي تتربص بي لتغزوني، تبهرني، وتجعلني مجنونا ،عيل صبري لم أعد أقدر على الانتظار أكثر من هذا .....لا حاجة إلى هذا القرض، لينسف المنزل وكذلك الضيعة وكذلك الآباء واليهودية والعشيقة....مالي أتفنن في أيلام نفسي بنفسي...."[1]

كان رشيد في حلم دائم يتذكر معلمه ويسرح بعقله خارج القسم، مشغول البال بتلك البطاقات البريدية وأسماء الأماكن التي جمعت منها العشرات، بألوانها وصورها وطوابعها البريدية وأسماء الأماكن التي كانت تمثلها: القاهرة، دالهي الجديدة، اسطنبول ،دمشق، طشقنت، كولومبو، اصفاهان، بعلبك، بوخارة، شكاقوا، بارق، نيويورك، ويتذكر كذلك انتحار العم جلول بعد إفلاسه إذ يقول: "...وبعد اكتشاف تلك الجثة المعلقة المتدحرجة ،عشت عدة أشهر أعاني من الصدمة ما أعاني كان قد وقع ذلك سنتين بعد حادثة الترامواي الذي هشم جسم العمة فاطمة وحتى الآن، أسمع من حين لآخر صوت رجل العم جلول الخشبي تقرع حجر التبليط المفرش به الشارع الذي يفصل بين مخزن الأب ومخزن العم جلول....لكن الهوس (قرع الأقدام) كان أخف من الهوس الآخر (نحنحة العمة فاطمة) ومن كل ذكريات الأليمة الأخرى..."[2]

لقد كانت عروق رشيد معقودة، انفعال آخر للكبت، عدم نسيان أي شيء على المكتب، التحقق من وجود جميع وريقاته في الدرج إنه لا يحب أن يترك أسراره منتشرة في خلفه، ورغم ذلك يقول:" أعرف نفسي لدي صبر الصبار، هذا ما كانت أمي تقول لمدحي".[3]

1 المصدر السابق، ص 159.

2 ينظر: المصدر نفسه، ص 238.

3 ينظر: المصدر نفسه، ص 244.

ثم يقول رشيد:" تغدو الحديقة تخيلا فائق الروعة، وتتنامى في رأسي آلاف البغونيات شاقة خلاياي العصبية إلى حد التفجر في الهياج المذبذب والمكثف لحالة نفسية معدّنة...شيء في رأسي مثل جرد يجرش باعتناء دقيق، وبهمة ،أتكون عمتي فاطمة على حق؟ كانت تردد دائما هذه الجملة، رامقة حوي محدقة في :" ولد الفار يطلع حفار".

رشيد يحس أنه مفعم بالصفاء يعتقد أنه فتح شرخا في علم الإنسان بفكرة تأليف كتب حول محاسن التناقض الجدلي بين الحداثة والتراث القديم، إنها أطروحة ثورية، لكنها ليست ميسورة الإثبات فهو يقول:" ولكن كم هي كبيرة وضخمة تلك الجهود التي أبذلها لعبور الفراغ الملتف صردا حول كلماتي سبق وكتبتها يمكنني إخلاء السبيل لانفعالاتي"[1]

إن رشيد اليوم يمتلك في ذهنه صورة ذلك العجوز حية مقلقة هو يتحول ليلا بمصاحبة العالم وعرضه، ويعود في الصباح منفوش الشعر مقرورا داخل سترته السوداء التي تحمل شارة الشركة يتحدث عن نفسه فيقول:" بل ومنذ أن أسعفته الذاكرة إن والدته لا تريد له أن يسلم نفسه لخيالات العجوز، فقد أحس بها مسجلة إلى الأبد كأنما هي نقش بارز ما فتى يوشم حياته، فالخطوط التي تشكل شبكة معقدة من السكك تتابع فيما بينها وتنكسر في الأفق وتتشعب إلى ما لا نهاية وهي تعج بمشاريع تجريدية عن المستقبل ،وتنتفخ وتفجر دوائر الزمن إلى آلاف الشظايا وإلى مجالات معوجة وإلى هندسات غير معقولة...."[2]

يجد رشيد نفسه في ذلك الامتداد الفضائي الهائل، فيدرك خطورة الألعاب التي يستبدل فيها هويته فهو يقول:" أنا ومريم لم أكن أنوي بذلك الثأر من لعنة العزلة التي حلت بي فحسب بل أحاول أيضا أن أبحث عن ذاتي داخل سراديب الدم المتشابكة فيما بينها حتى أبلغ ذروة السلالة الخارقة التي لم تكن لتقو عن الاستغناء عن عملي وحنيني[3]، لقد عرفت جيدا أني لم أعد بالأمور إلى

1 المصدر السابق، ص 245 – 246.

2 ينظر: المصدر نفسه، ص 265.

3 المصدر نفسه، ص 271.

سكتها على وجه السرعة فلن يأتي من يبحث عنها وسوف تقع أذاك أسرتي كلها في أحابيل الفسق الذي يختلط بينها ويفرغها من جوهرها كله، وأنطلق في الجري وأنا أفكر بأنه علي أن أحزم الأشياء في الوقت المناسب وأتخلى عن الأشباح والهواجس...."

يوم يدفع بآخر وتنتفض الذاكرة مثل قطعة لحم معروق مغلى بالكمون (ممرث؟) فقد كان رشيد يعود من وقت إلى آخر إلى كمياء المخطوطات المنحولة وإلى ذلك الصفاء الضروري الذي يرغمه على التخلص من الهواجس، نتيجة لسداجة أهل الدار.[1]

إن رشيد في صورته النفسية يتذكر الماضي المتفكك تائها بين الحيرة وعتب شديد على الذات، وكان يعيش حالة حوار داخلي من كوابيس هواجس وتراكمات (كبث) ،ونكسات (ألم، هم، حزن، غم، قهر) وهذيان وازدواج الشخصية وصراعات غرامية....

1 المصدر السابق، ص 271

المبحث الثاني: الصورة الاجتماعية:

قضية دفن زوجة أب رشيد اليهودية بين مقبرة إسلامية ومدفنة يهودية أثرت كثيرا في نفسيته لأن عمه لم يترك له حق الاختيار إذ يقول:" كان علي أن أجد السبل الدينية والإدارية حتى تدفن المسكينة في أفخم مقبرة إسلامية،ألم تعتنق الإسلام منذ بداية علاقتها مع أبي وذلك أمام شهود عيان وإنهم ماتوا كلهم ولم يتركوا ولو أثرا واحدا مكتوبا يدل على إسلام عشيقة أبي وأم إخوتي من أبي..."[1]

يتحدث عن منزلهم في القرية:" وقد اعتدت على ...رائحة الخميرة الواصلة من معجن الخبز...والكافور والعقاقير الأخرى التي تستعمل لتطهير المنزل....لا في الغرف فقط بل وعلى سطح الدار وفي بيت الغسيل هناك...وكذلك روائح الكحول المتمارثة ....وعفونة الحليب الطازج ونضج الخبز المحترقة حافاته...ثم أيضا:الأواني النحاسية أو القصديرية أو الزجاجية التي تسخن فيها القهوة الممزوجة حليبا خاثرا فيفوح منها اليود وأكسيد الحديد ،ثم أشيا أخرى: الدهن المتقشر...المسامير الصغيرة المصدأة المغروسة في الخشب الزافر...."[2]

ثم يتذكر المنضدة القديمة ثم لوحة قرآنية ،ثم شرحه لأبناء الجيران، بعض المسائل الرياضية أو القواعد النحوية ثم ساعات قديمة جدارية من أصل صقلي ورثتها قمر زوجة أباه الثانية، آلات موسيقية بالية تركها الفرنسيون عند مغادرتهم الجزائر سنة 1962 وخيوط العنكبوت ويعود ويتذكر الأمر الذي يتعلق بموت إمرأة يهودية كان كل أفراد العائلة يظنونها إحدى زوجات أباه الشرعيات معتقدين أنها اعتنقت الإسلام أمام شهود عيان، لكن أباه لم يتزوج من هانريات الخياطة اليهودية التي عرفها يوم كانت تتردد على منزل أمه لتفصيل فساتينها، فلم يعثر أحد على عقد الزواج ولم تعلم المرأة المسكينة بذلك إلا ساعة احتضارها[3].

1 المصدر السابق، ص 8 – 9.

2 المصدر نفسه، ص 11.

3 المصدر نفسه، ص 15.

يقول رشيد:" رفض أبي أن يكتب عقد الزواج وترك الأمور هكذا لمشيئة الله أما الشهود فقد ماتوا جميعا وليس ثمة وثيقة مكتوبة "[1]

ثم ينتقل رشيد ويقول: "كنت أنا صغيرا لا أتجاوز العاشرة قضيت النهار كله تحت شجرة التوت المورقة صيفا شتاء بصحبة أخي المهدي وأختي سعيدة وأبي لا ينفك يسافر ويجوب العالم للتجارة ولأمور أخرى كثيرة الله أعلم فيها...."

فقد كان يأتي رشيد إلى منزلهم ويسكن الحجرة ويفتح النافذة ويضع مكتبه –ليلا– أمام التوتة بينما تصله من الطابق التحتي همسات الأب وصوت أقدام العمة فاطمة المعراجة وقرع قدم العم جلول الخشبي وسعال اليهودية كان يبقى هكذا فوق المكتب كما أنه تعود العصافير التي تفرفر ،وقد كان بالمرصاد لشخشختها وهي نائمة ملفوفة الرؤوس بين حرير ريشها....

إذ يقول رشيد:" الحديقة أمامي وأنا أكتب تحت ضوء المصباح الكهربائي بين وشوشة العصافير الترنمية ووسوسة الأب المريض الليل يتهالك ....والصور والبطاقات البريدية ....وأوراق الإفلاس العائلي كلها أمامي"[2]

كان أخوه عبد الله يتمل فيبحث عنه فهو يقول:" وأبقي لوحدي جاهدا في البحث عن الأخ الأكبر فأجده في نهاية المطاف في إحدى الحانات الشعبية شاربا ثاملا"

يدخل رشيد حجرة أبيه ويتحسس جسمه، وهو في غيبوبة فيستفيق ويفتح عينه متسائلا عما حدث...يقول رشيد:"وأتركه لتوه وأخرج وأنا أنادي أمي فتخرج من المطبخ ويداها تقطران بماء الغسيل، ويأتيني صوت أمي من بعيد:مالك؟ أنا هنا يا رشيد ....في المطبخ...هل تحتاج شيئا أعود أدراجي (لا شيء أماه لا شيء أردت أن أطمئن عن حالتك هذا الصباح ...."[3] كان رشيد يطمئن على أمه وأبيه ويتفقدهما ،لقد عاش في قسنطينة :"قسنطينة إنها مدينة عجيبة وإني أعرفها كل المعرفة

1 المصدر السابق، ص 15.

2 ينظر: المصدر نفسه، ص 20 – 30.

3 ينظر:المصدر نفسه، ص 50 – 58.

لقد سبق وعشت فيها حتى السابعة عشرة من عمري أتنقل بين الثانوية الفرنسية الإسلامية ومعهد ابن باديس...."[1]

يتحدث رشيد عن حبيبته :"كنت أمر مرارا أمام نوافد دار عمتها بدون ما جدوى، بل ولعلها إذا ما شققت طريقي نحوها إنها تصيح صارخة تطلب المساعدة...وإذا بي أمل فاكره هذه المواقف المسرحية التافهة، وإذا الغيرة والحقد والعزلة تتوغل في أعماقي فأخذ جسمي يجف ويتبيس إلى حد أن تقيحت رئتاي فغضبت ليس فقط لخيانة سامية بل أيضا لأنني غضبت عن لملمة ذكرياتي التي توزعت كلها في أرجاء المدينة الشاسعة "[2].

إن رشيد ابن رجل غني وأصدقاؤه جلهم فقراء فقد كان يقول:" وأحدس أن الأولاد يكرهون الأغنياء ولا أفهم سبب ذلك فأعمل جاهدا على إرضائهم وإرضاء ذلك المؤذب الفقير ....(عم سيدي....) إذ كان شيك مني تديني ونزاهة شعوري الديني وذلك لأنه كان ....والمدينة كلها يعلم الكثير عن خلاعة أخي الأكبر عبد الله وعن وجود يهودية من بين عشيقات الوالد..."

رغم وجود بوتقة عامة من الرموز الاجتماعية تعكس حق الانعكاس تفجر البنيات التقليدية المتواجدة داخل الكيان العام إلى أن يصل :الأزمة فرشيد يقول:" ما هو الخيط الرابط بين ممارسة العشق مع قمر وأنا لازلت صبيا وعلاقتي بماري مثلا"[3]

رشيد عاش في مدينة فيها التراموای الذي هشم جسد عمته فاطمة يقول عن ذلك :"قد اعتدت على جميع مصائب المدينة الغامرة حيث أقيم عادة تلك المدينة التي جز فيها جنوني ....تلك المدينة التي ينبثق من أحشائها عربات التراموای الزرقاء التي هشمت أحدثها جسد العمة فاطمة فلم تعد تدري (العربات) رأسها من ذنبها "[4]

1 ينظر:المصدر السابق، ص 61.

2 ينظر: المصدر نفسه، ص 61 – 62.

3 ينظر: المصدر نفسه، ص 71 – 72.

4 المصدر نفسه، ص 106.

كان رشيد يتجنب التفكير في مقابلة العم الأبله فهو يقول :"أركز جهودي على اللوحات التي تشير إلى أسماء المصلحات والمكاتب الإدارية للبنك حيث جئت لمقابلة المدير بعد أن أقدم طلبا لاقتراض المال من أجل ترميم الدار الكبيرة وقد قدمت كثيرا، وصارت في حاجة إلى ترقيم وتصليح"[1].

يتحدث رشيد عن المحيط الذي عاش فيه يقول:" كبرت في ذلك المحيط :العويل والدم (كل أنواع الدم) والأموات (كل أنواع الجثث) والنحيب والفجور (كل أنواع الفجور) والبكاء والرهان (العقاري والتجاري والصناعي والمصرفي) .....والأقمشة (كل أنواع الأقمشة :القطن، والحرير...) والبخور (كل أنواع البخور: الجاوي، الشب، العنبر...) وكل أنواع الروائح ....ومنها روائح الأنسجة ....وروائح التوابل...."[2]

يتحدث كذلك عن أستاذ الحسابيات الموسيقي الذي يؤدي القبض عليه إلى طرح المشاكل أكثر من أن يحل منها: ويتحدث كذلك عن الكاهن الأعظم إذ يقول :"إذن قد أورثني الكاهن الأعظم كل ما عنده: بطانية وبعض الكتب نصفها محروف من جراء حريق عمومي أمر به جماعة السفاحين الفرنسيين وقد تمكنت من إنقاذ البطانية بعد نزاع وخصام ماكرين وكان علي منذ ذلك الحين أن أجرها معي حيثما حللت ولم يهتم أحد بهذا الإرث الذي أورثنيه الكاهن الأعظم".

فقد كان رشيد وزملاؤه يستأنفون المسير باحثين عن بعض شجيرات العرعر للاحتفاء وكانوا يتسلقون القمم كذلك.

يقول رشيد :" كنت أتحدث عن شيخي الفقيد أعرض نفسي للخطر لأن السلطة والنفوذ الأعظم كانا يومئذ بيد العصابة وكان لا يطيب لها أن يذكر المرء تلك العمليات التي وقعت فيها تصفيات الحسابات فأودت بحياة الأخيار". قال رشيد :"وهكذا لم يحصل أي تقدم بل ظلت جميع الأمور تنتظر من يقوم بها بيد أن هناك يقين واحد هو حبي لمريم..."[3].

1 المصدر السابق، ص 157 – 158.

2 المصدر نفسه، ص 168.

3 ينظر: المصدر نفسه، ص 207 – 209.

يعود رشيد قائلا عن حادثة عمته فاطمة:" كان رأسي يرن مثل حافلة الترامواي الكهربائي (صوت عمتي فاطمة وهي تصيح وتعيط وتطرب الأرض بيديها الملطختين بالدماء حيث كان جسدها كله يغوص فيها قصتها العجلات من وسطها شطرين متساويين ....رجعنا إلى المنزل تقيأنا المرار ...أحرقنا كل ما نملكه من الأوراق المالية التي اقتصدناها لمدة شهر..."[1].

ليس هناك إلا التوبة وموت العمة فاطمة وأسفار الأب وانتحار العم جلول، وترقب الحبيبة إذ قال رشيد :" وفقد كان علي وهذا شرط من شروط اللعبة أن أترقبها وهي راجعة من الحمام العمومي فأتتبع خطاها متشمّما آثارها في عبق الرياحين والمسك والعنبر بحيث أنه كان بإمكاني أن أسير في سياحها المعطر مغمضا العينين فأصل إلى قعر عرينها حيث كان الغول أبوها يترقب عودتها من الحمام وعيناه تحدقان عقارب الساعة الحبيبة"[2].

ثم يتحدث رشيد عن زوجة أبيه الشرعية إذ يقول:" كنت إذن أضاجع زوجة أبي الشرعية :ترى هل كان سبب ذلك صلة الرحم المهانة طيلة قرن كامل من العنف والنار؟ لقد كان إرث السلف يحرك خوفي لأني كنت آبي أن يكون سلوكي كسلوك رئيس العشيرة، وكانت القطيعة واضحة جلية، وأما أبي :فقد كان مسرا بصرامة على رفضه ،فكان لا يفوته قط أن يوقفنا دائما عند حدنا فكنا نتعلق بجلده مثل البق العنيد: إن التلميح إلى الدم كان جليا ولم يكن حبي الآثم لزوجة أبي إلا مرحلة من مراحل الكفاح"[3].

فقد كان رشيد يلجأ إلى زنا المحارم، وأخوه إلى الخمر إذ يضيف قائلا:" إنها الرغبة في القضاء على عادات أجدادي السلفية واسترجاع الأبوة المستلبة وقمر هذا الزنا بالمحارم الزاخر، هنا في متناول يدي!، فتنتا بني الشهوة من جديد ومن جديد ألحها، اقتحمها أنا الطفل الذي لا يعرف أباه إلا من خلال البطاقات البريدية "[4].

1 المصدر السابق، ص 219.
2 المصدر نفسه، ص 230.
3 المصدر نفسه، ص 246.
4 المصدر، نفسه، ص 251.

يتحدث رشيد مرة أخرى عن أخيه الأكبر إذ يقول:" أما أنا فمازلت أصعد كل صباح إلى أعلى الشجرة بمفردي لا يصطحبني إلا أخي الأكبر الذي كان يغطيني بمعطفه ويفتح من فوق رأسي مظلة هائلة كان المطر يقرع قماشها الحريري المشمع كتيما على وثيرة نبضات قلبي الصغير".[1]

إذن صورة الاجتماعية الأنا أي (رشيد): هي عيشه في منزل مملوء بالروائح الأواني والساعات قضية دفن زوجة أبيه اليهودية ...بحثه عن أخوة الأكبر في الحانات ....جلوسه في حجرته أمام التوتة تحت ضوء المصباح الكهربائي.

اطمئنانه على أبيه الطريح الفراش وأمه الموجودة في المطبخ

ممارسته زنا المحارم مع زوجة أبيه (قمر)...موت عمته فاطمة بإحدى عربات التراموای.

1 المصدر السابق، ص 257.

المبحث الثالث :المعطى الثقافي للأنا:

تحدثنا في المبحث السابق عن الصورة الاجتماعية للأنا نتحدث الآن عن المعطى الثقافي للأنا من عادات وتقاليد نذكر:

- وجود مخطوط رث كتبه المقريزي وعنوانه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) والمفقود من جميع المكتبات العربية وغير العربية ،وكذلك أول أسطوانة سجلتها أم كلثوم، أقدم آلة عرض سينيمائية الخ...[1]

- إن رشيد قد كان كثير التجوال إذ يقول:"كنت وأنا أتجول عبر شوارع المدينة وساحاتها أطحن شجوني تحت عظام ضلوعي وما كدت أتخلص منه حتى لسعتني السويداء القائمة من جديد عند سماعي أشعار المداح الغزلية"[2].

- يتحدث رشيد عن ماريا :"تعرفت عليها وأنا أسبخ قطن الأيام وأجازف نفسي وأطوف حول النساء وأمارس السياسة وأكتب الكتب وأحمض الأفلام وألتقط الصور وأحاول جمع وتجميع ما شتته الأب من أشياء الحياة الزخمة ومن أمور الأموات المهوجسة كانت في حاجة إلى تقنية صخبها وضجرها فحدثتها عن الحزب، رفضت لأول وهلة، متذرعة أنّ المناضلين في مثل هذه الأحزاب إنّما يدخلونها وقاية ذاتهم ،أي لأغراض نفسية لا علاقة لها بالصراع السياسي....كانت على حق"

- كان رشيد مع الصبيان معتادون على تلاوة للقرآن فقد قال:"ولكن بمجرد أن نتوقف عن التلاوة (بسم الله الرحمن الرحيم عم يتساءلون...) تتحرك عصا المؤدب الطويلة ذات الرأس الطويلة وتخرق الهواء خرقا وتضرب الأجسام ضربا مبرحا...."[3].

1 المصدر السابق، ص 13.

2 المصدر نفسه، ص 61.

3 ينظر: المصدر نفسه، ص 69 – 71.

يضيف رشيد قائلا:"كأنها تتراءى من خلال الحروف الشفافة فبدونها داخل مدونة ذهبية تفيض فيضانا فندخل بين طياتها ونغوص في أساطير سيدنا نوح وخرافة (إرام ذات العماد لم يوجد مثلها في البلاد...) ونغترف التاريخ اغترافا فنمزج بين الواقع والخيال بينا الأسطوري والتاريخي بين الخرافي والواقعي بين الأزمنة والأمكنة فإذن كانت عادة رشيد الكتابة وكانت ماريا تنظر إليه وهو يبدع وكان كذلك يقص عليها الحكايات القدرة التي اكتظت بها حياته ،يقول رشيد" وكان كذلك يكفيني إذ كنت أشعر فجأة بالحاجة إلى التصريح بصوت عال بحقائق بديهية وكان النهج أسفل غرفتها ضيفا ينتهي إلى أرصفة الحديقة وبالأمس كلنا بعض (الروبيان) المشوي في مطعم شعبي بالقرية وقد عرض علينا فيه أن ندخن الحشيش فأجبت بغتة – لا –".[1]

يصبر رشيد مساميا الأغاني فهو يقول:" أصبر مساميا قصاصات الأغاني أملؤها شطوبا وتشطيبا إلى حد الإبهام والألم ستختلط الأصوات بالأصوات والرنات....وتنقلب هيروغليفية فريدة من نوعها ورموزات خرافية فتفتح مجالا من التيه فسيح الأرجاء وعميق المنبع "[2]

إن رشيد كان مولعا بالقراءة والمطالعة فقد قال:" فأخذتني لوعة القراءة والمطالعة ورحت في زيارة معلمي القديم سي الزغواني وقد كان متقاعدا، فاستلفته عدة مخطوطات كان قدرتها من أجداده منذ القرون الغابرة، واستغللت الفرصة فسألته عن قضية التعذيب ....وكان يحن إلى ذلك العهد ويتشوق إليه ذاك الذي كان يعلمنا فيه الأبجدية ....عدت بمخطوطات سي الزغواني. وبدأت منذ ذلك الحين في مطالعة ابن خلدون..."[3]

1 المصدر السابق، ص 104.

2 المصدر نفسه، ص 137.

3 ينظر: المصدر نفسه، ص 174 – 175.

قرأ رشيد المخطوطات التي سلّمه إياها معلمه الزغواني: ابن خلدون الجاحظ وكذلك قصائد أحمد بن ماجد، وابن عذاري والنويري والمسعودي وابن الأثير وابن بطوطة والكندي والمقريزي...

كان من عادة رشيد كثرة التجوال ،مطالعة المخطوطات –تلاوة القرآن- الاستماع للأسطوانات،تحميض الأفلام، والتقاط الصور، الأكل في المطاعم الشعبية، زيارة معلمه القديم سي الزغواني وغير ذلك.

إذن نقل رشيد بوجدرة في روايته المرث الأنا النفسية والأنا الاجتماعية والأنا الثقافية تلك الأنا بشتى صورها في عدة مواطن المتمثلة في الحيرة والكبت، هم وحزن كوابيس سقطية دفن زوجة أبيهن بحثه عن أخوه الأكبر في الحانات، مطالعة المخطوطات.

الفصل الثّالث:

الآخر في رواية المرث

الفصل الثالث:الآخر في رواية المرث:

تحدث رشيد عن الأنا النفسي والاجتماعي وحتى الأنا الثقافي كذلك هو يتحدث عن الآخر الذي لا ينفصل عن الأنا، فقد تطرق للآخر من الناحية النفسية والاجتماعية ومن معطاه الثقافي.

وسنقوم من خلال هذه الدراسة برصد لمختلف تجليات الآخر في الرواية:

المبحث الأول: الصورة النفسية :

والتي تجلت من خلال: تحدث رشيد عن عزاء أخوه الأكبر وكيف كانت حالة الأب النفسية إذ يقول:" كان الأب في حيص بيص وهو خائف من أن تسبب هذه الشرذمة من أصدقاء الميت فضيحة لا تحمد عقباها خاصة وأن هؤلاء الأشخاص كانوا قد شمروا عن سواعدهم فظهرت أوشامهم ....منها الصور الإباحية والقصائد الأندلسية الرائعة فيصبحون ذي ضراوة ومشاكسة في وجه هذا الخليط من البشر الذي شد إلى العالم وهو عاجز عن الاقتلاع منه"

كان منظرا مزريا ومهيبا في آن واحد فإذا بالنعش يتأرجح في شيء من الغرابة والبؤس والشدود واللاواعية وجميع الحاضرين بين الحيرة والقلق تائهين.

عبر رشيد عن موقف أمه:" كانت أمي ترجو لشدة حزنها أن تدوم فترة التأبين وتمتد إلى ما بعد التاريخ"[1].

قال رشيد عن زوجة أبيه اليهودية:" بينما اليهودية تشهق بكاء وهي خائفة أن تدفن في مقبرة يهودية، وبينما الأب يبصق في إناء من فضة، وهو آخر عينة من ماضيه الفاخر إيماءه إلى تعجزه وغطرسته وتعصبه وبهتانه"[2].

يريد هنا رشيد أن يرؤى هذا السخط الضامي من طرف أبيه كانت ماريا تقول:" الأم جزائرية والأب فرنسي، شيء فظيع بالنسبة لأغلب مواطنينا كانت تقول ذلك ضاحكة شاهقة" لكنني كنت أفهم من خلال حركات عينها إنها تعاني من هذا الخليط (أو الانشقاق) كأنها قد ضرتها الحشوات

1 رشيد بوجدرة، المرث، ص 18 – 19.

2 المصدر نفسه، ص 27.

والرخويات ....لأنها لا تملك إما تمكنت من مجابهة المجتمع الضيق وتزوجه بفرنسي لذا نشأت وكأن عقلها مجهز بلطخة ضوئية ترسلها مسلاطا مخيفة في طيات نفسها، فتفيض على وتيرة تشجين سرمديه، أفقية وعمودية معا ثائرة، غاضبة، صاخبة، رافضة، متمردة، غاضبة، قاهرة، جبارة ،جميلة، رائعة الجمال، ساحرة، شبقية ومثيرة.

ويضيف رشيد قائلا عن ماريا:" أفحلت ضاحكة بصوت خافت لأنها تعلم أن أمي متنامية في غرفتها وأبي محتضر على فراشه وضره أمي اليهودية ....تعاني من سرطان الحلق....تبتسم بلطف لكن الارتجاف انقبع داخل أحشائها والارتباك سطا عليها داخلها الشك نقر الخوف نخاعها الشوكي...."[1].

لقد كانت ماريا تدري أن أجزاء قصة رشيد وهمية إذ يقول :"لقد كانت تتصور بحسها السادس بين النزعة إلى الولوع بالخرافات والأوهام وبين الحياة في المنزل الواقعي الضيعة الهضابية...."[2]

يقول رشيد عن الأحاسيس التي تنتاب ماريا:" ولعل الأحاسيس التي تقتحمها وهي مازالت في الفراش إنما تتداخل في شبكة النوم من خلالها تنزلق فتصبغها بلون الحزن إذا ما كان الجو غائما وبلون الفرحة إذا ما كان الجو صافيا وكثيرا ما تقبع مريم في بيتها أياما طوال، لا تعرف للدنيا وجود إلا من خلال النافذة المغلقة، الشبابيك الحديدية ....استفاقت ...تذكرت تلك الصباحات الرائعة التي كان يصطحبها فيها أخوها إلى المدرسة خاصة من خلال السنوات الأولى التي كان يحملها ومحفظتها على كتفيه ويجري بها..."[3]

ثم يتحدث رشيد عن قلق أمه إذ يقول :"كان أن تفاقم قلق أمي مع ازدياد التذبذب والتشوش وما عتم أن كسا القلق والإسوداد شحنتها ،فراحت لأمورها تتهامل وبمظهرها تتهاثر..."[4]

1 ينظر: رشيد بوجدرة ،المرث، ص 69 – 78.
2 المصدر نفسه، ص 106.
3 ينظر المصدر نفسه، ص 186.
4 المصدر نفسه، ص 228.

ويضيف رشيد قائلا عن أمه:" فقد سمع الناس ابنة المصباحي (أمي) للمرة الأولى تغني في المطبخ ،كان البياض الذي يكسوا الأرض قد حقن في دمها مقدارا من الصفاء مدرارا وهي التي عودت محيطها على الحمى المرهقة حتى نوبات الضحك التي أغرقت فيها ما كانت إلا تعبيرا منها عن حيرتها التي تخلصت منها فلا تترك للشقاء في المجال أن يتسرب إلى أعماقها من باب سعادتها كما اعتادت أن تسمى به قلبها".

يتحدث كذلك عن أخيه عبد الله الذي قرر الاعتزال فيقول:"قرر عبد الله الخروج من المنزل فاعتزل العالم كليا، وقبيل مغادرته البلدة راح يحطم العديد من الأقفاص فقتل بعض اللقالق ضربا بالحجارة ومزق رسائل الحب التي اعتاد على اقتبالها من فتيات عديدات...وما إن وجد نفسه في البستان حتى فتر غضبه مع فتور الريح الشتوية ،وجاء دور المرارة والتعثر وأحس كأنه وقع في فخ...وإذا به يدرك أذاك أنه لا ملجأ إليه سوى أن يسيء التصرف مع ما فيه من تناقضات ويحرق التاريخ ويفتح في الكلمات شقوقا ويحدث في حنينه ثقوبا بدلا من تجرع القلق الذي ما كانت أرض الجفاف الداخلي المتيبسة إلا أن تزيد من حدته ولم يعد شيء يخفف من حدة حزنه حتى أعذب الذكريات وأحلاها "[1].

مما سبق نستنتج أن رشيد ذكر بعض الصور النفسية للآخرين من (الأب والأم وماريا وأخوه عبد الله) من خوف وحيرة، قلق وشدة الحزن، انشقاق، نوبات، ضحك واعتزال.

1 ينظر، المصدر السابق، ص 266 - 268

المبحث الثاني: الصورة الاجتماعية:

يتحدث رشيد عن زوجة أبيه التي كانت فراش الموت :"وتسبح وتذكر اسم الله واسم محمد وهي في حالة احتضار تحدق النظر في مرسلة إلى شرارات مستقرة ملوءها الكراهية الملحة النكراء وكأنها تحدس بما أعلم وبما نجحت فيه لحد الآن لإضفائها من أسرار تحدق نحوي وتثقب جسدي بعيونها الفاترة وقد رسم الموت بصماته على نحالة وجهها وأعضائها"[1]

فهي تسبح تسبيحا وتزيد في تمتمة الذكر الحكيم بلهجة يهود قسنطينة فهي تعاني من مرض مزمن سوف يقضي لا محالة عليها.

ثم يتحدث رشيد عن أمه فيقول:" أمي تئن وتشعل المجمر- لا تسمي ضرتها إلا اليهودية "

ويتحدث رشيد أيضا عن العمة فاطمة:"تكاد تنساها أي (اليهودية) وتنسى حتى وجودها لأنها لا تبرح حجرة أمي حيث العجوز لا تدخل قط إذ هي تعلم علم اليقين أن الضرة اليهودية سكنت فيها"[2].

ويتحدث أيضا عن أبوه يوم عزاء أخوه عبد الله:"وعاد الأب يوم تشييع الجنازة برفقة تابوت الفقيد، يرفل في بداية أنيقة كان قد اشتراها الابن لأيام قليلة قبل أن يسكر سكرته الأخيرة قال: هذا ما شاء الله وعقابه لا يمنع منه أحد! ...كان مرتديا بدلة جديدة زرقاء اللون كانت ملك عبد الله ولعل الأب قد عدلها حسب هندامه من قبل أمهر الخياطين الإيطاليين ،وكان يظهر أقل سمنة وأكثر أناقة ولياقة جمالية وصخبا متعمدا وهو يتقبل تعازي الحاضرين"[3].

يضيف قائلا كان أصدقاء عبد الله جاؤوا الحمل لحمل صديقهم في تابوته، فضاقوا ذرعا بمثل هذا الحجم الكبير من الطقوس الخاوية من كل معنى في حين كان كل واحد منهم يتألم ويتململ على ضياع وفقدان ذلك الحبيب الراحل الذي كثيرا ما نادموه وأداروا الكؤوس بينه وبينهم حتى الثمل وبعدما بعد الثمل.

---

1 المصدر السابق، ص 08.

2 ينظر: المصدر نفسه، ص 10 – 14.

3 ينظر: المصدر نفسه، ص ص 17، 19.

يتحدث كذلك عن أمه وعمته فاطمة اللتين قررتا التضحية بوقتهما للاستماع إلى كل شكاواتهم وخرافاتهم وهذياناتهم ولعل أكثره بكاء على نفسه وشفقه على روحه هو أبوه الذي أصبح طريح الفراش فقال:"عاد إلى منزل أمي وقد تزوج عليها مرات عديدة وأكثر من عدد العشيقات والصفقات التجارية الجنونية حتى أفلس وفقد أسنانه وجاء إلى منزلنا يطلب الحماية والمغفرة ولليهودية المسكينة الشفقة فقبع كل منهما في حجرة وأمي بينهما صامتة صابرة والعمة فاطمة...لا تفارق أمي وتربي الأولاد وتسهر على نظافة المنزل..."[1]

فأم رشيد لم تتغير كانت لا تلطخ وجهها بالمساحيق التي تستعملها كل قريناتها سنا وجاها أما عمته فاطمة قد لعبت دور المربية لجميع إخوانه وأخواته وأبناء وبنات عمومته...

يعود رشيد ويتحدث عن أبوه الذي دخل السجن إذ يقول:" صفع عقيدا فرنسيا على عين الملأ في الشارع الكبير، وبعد ساعة من الحادث زج به في السجن العسكري... وتمضي سنة كاملة يخرج من السجن ،كانت الجماهير تنتظره أمام باب السجن وسادت المدينة الغبطة والسرور وأقيمت الولائم والأفراح على شرفه..."

ثم يتحدث رشيد عن زواج أبيه للمرة الثانية:" فتزوج سنة 1946 من امرأة ثانية كان أبوها من أصل تركي ومن أعيان مدينة عنابة ..."[2]

ويتحدث عن أمه مرة أخرى إذ يقول:" ..وكأنها تحمل داخل مقلتيها كل دموع العالم عامة ودموع الأم خاصة تلك التي بقيت هكذا مجمدة منذ سنة 1945 (25 جويلية) أي منذ اليوم الذي تزوج أبي من قمر تلك المراهقة العنابية بنت الأصل والمجد القادرة على عكس أمي أن تنشر سلالتها – التي تؤدي بها لا محالة إلى ذلك القرصان- التركي صاحب الساعات الجدارية التسع عشرة..."[3]

1 المصدر السابق، ص 23.

2 ينظر: المصدر نفسه، ص 33 – 35.

3 المصدر نفسه، ص 41.

يتحدث رشيد عن صفات أبيه:" كان أبي على عكس أمي مجبولا بروح الصراع والنضال وكأن أصله الريفي قد غرز فيه تعنتا مخيفا وتعصبا مريبا ...عندما رجع في أحد الأعوام إلى القرية وشاهد سيارة أكبر معمر من معمري المنطقة هتف إلى الولايات المتحدة على الفور وقدم طلبية لأفخم سيارة أمريكية وقد اختار لونها أخضر ناصعا، فكاد المعمر يموت غيظا ،كان يهتم بكل شيء وكان العلم، يفتن لبه فوق كل حد وقد اهتدى إلى حذف التكلم بعدة لغات بدون أن تطأ قدماه أرضية مدرسة"[1].

كان أب رشيد يقرأ على الدوام الكتب والمجلات ويدبج القصائد الشعرية لقمر زوجته.

ثم يتحدث رشيد عن صديقه كمال الذي كان كما يقول :" أما صديقي كمال فقد كان يضجرني بربطة عنقه البراقة وحذائه المتعدد الألوان وجبنه عندما نوشك العثور على أخي، فيتركني نحو إحدى عشيقاته.."

ويتكلم أيضا عن أخيه عبد الله إذ يقول:" ويثمل أخي عبد الله فيلح على رفاقه بدفع ما يشربه ندماؤه (وهو أغناهم وابن عائلة غنية وأبوه يجول العالم لغرض أعماله التجارية واللاتجارية راسلا البطاقات البريدية من كل بقاع العالم وكذلك المبالغ المالية الضخمة حتى تعيش عائلاته الأربعة في عز ودلال، وسعادة وتصريف وتبذير وبذخ ورغد عيش"[2]

ثم يتحدث عن خدعة حبيبته التي نغصت حياته:"إنما خدعتني حبيبته وقد وعدتني بمقابلتي وتركتني آتية وسط هذه المدينة، زاعمة أنها تتمتع بحرية التحرك المطلقة"[3].

1 ينظر: المصدر السابق، ص 42 – 43.

2 ينظر: المصدر نفسه، ص 51.

3 المصدر نفسه، ص 61.

ثم يتحدث عن صاحبه المتسكع الذي كان يتهكم على مشاعره إذ يقول صاحبه :"لقد أصابتك ضربة (القمر) والشمس: كما تريد وما هذا كله إلا لأنك عشقت فتاة يا للكارثة... لكن يحاول في آخر الأمر مساعدتي على استرجاع ذكرياتي، فيأخذ يقص علي الوقائع التي عشناها سوية مقدما لي بعض زملائنا بالمعهد، وآخرين في المدرسة الفرنسية الإسلامية :لقد أضاع الشعور لتوه من فرط إدمانه على المقارعة..."[1]

ثم يتكلم عن حبيبه ماريا فهي مقسومة إلى شطرين الأم جزائرية والأب فرنسي، فهي مختلطة الدم والدين والأصل والنسل.

يعود ويتحدث عن العمة فاطمة إذ يقول:" كانت العمة فاطمة تخاف من السلحفاة أتذكرها بنابها الفريد اليتيم المجنزر، تخرجه وتضعه على شفتها السفلى فتتوقف قلوبنا عن النبض وتكاد تتميع داخل قفصها العظمي، كلما قمنا بعملية تلويث الدار أو الحديقة أو استعملنا تصرفات لا تندرج في قانون اللياقة الخاص بها..."[2]

– يتحدث كذلك عن ماريا التي كعادتها تدخن السيجارة الواحدة تلو الأخرى

ويتحدث عن عمه إذ يقول:" كتب عمي (كرهت تكرار الأعداد على دفتر المحاسبة في المصلحة: تعبت من النسخ والنسخ، والتحليل التركيبي لازال يبهرني ولازال المطر شحيحا،للمرة المائة نفس المقولات تدور في ذهني، الحكومة لا تحب إلا الإحصائيات الصريحة...كان يتقن الكتابة ويحفظ القصائد والقرآن كان متمكنا من أسلوبه لكن هوسه: الإحصائيات ...والآن ها هو ذا يرجمني بهوس آخر، مصير جثة الضرة اليهودية ومشكل دفنها..."[3].

1 ينظر: المصدر السابق، ص 64 – 65.

2 المصدر نفسه، ص 73.

3 المصدر نفسه، ص 81.

ثم يتحدث رشيد عنه وعن إخوته إذ يقول:" وإذا بإخوتي وأبناء عمي وكل أطفال العائلة بما فيهم أنا وسالمة وعبد الله وشمس الدين وغيرهم ،يجمدون ويفقدون نهائيا نوبات الضحك المسترسلة وروح الفكاهة المتسارية في أعينهم الصبيانية العفيفة ،لا لشيء إلا لأنهم فهموا في هذه اللحظة أنهم سيبقون هكذا مسمرين مطبوعين على هذا الورق البراق وإلى الأبد، مثلهم مثل الجماد وجلمود الصخر..."[1].

كل هذه الملامح كانت أثناء حضور المصور الذي جاء ليأخذ لهم بعض الصور.

ويروي لنا رشيد عن حكاية أخته سالمة التي: "تزوجت لعشر سنوات فاتت فأنجبت العديد من الأطفال ونسيت كل الماضي الذي كان يربط بعضنا ببعض..." ويقول أيضا:" وعمتي فاطمة يتساقط فكها، وأسنان أبي المستعارة تورق في كأس مائها الليلي والهراء يتحلل والمطر يبشر وأخي البكر لا يفارق مظلته المطرية وأنا لا أترك الشجرة كانت دوامة الأيام تدور بسرعة مدهشة"[2]

فقد كان أفراد العائلة يعيشون تحت الحنابل والأعطية الصوفية فالعمة فاطمة تعاني من مطاردة الطيور التي كانت تقرع نوافذ الدار، كانت تعاني من تنكيس الأوساخ وجثث الطيور الميتة.

تذكر رشيد أخته الصغيرة إذ يقول:"تذكرت أختي الصغيرة، تسع سنوات بدأ جسمها يتغير وكان موت الأخ الأكبر والذي لم تفهم أبدا معناه بدقة... وقد فقدت الشخص الوحيد الذي كان يعرف ويتفنن في مداعبتها يتركها تسبقه يسقط على الأرض يفتعل الموت، يغمض عينيه...تخاف تظن أنه مات ،تتفجر بكاء وعويلا وتضمه وتحضنه بذراعيها الصغيرين....يتصنع الجمود والسكون جامدا ،لا حراك له تموت هي أيضا بدورها خوفا وذعرا..."[3].

1 ينظر: المصدر السابق، ص 89 – 90.

2 ينظر: المصدر نفسه، ص 107.

3 ينظر: المصدر نفسه، ص 145.

يبقى رشيد يتحدث عن أفراد عائلته إذ يقول:" وهو (الأب) يبقى جالسا في فناء الدار تشطبه الظلال، إذ تكثر الحركة حوله ...وهي (الأم) تركض من حجرة إلى أخرى ومن المطبخ إلى الحمام (تفاجئنا ،توبخنا) ....نقيض حركة وذبذبة تخالها خارجة من آخر الليل في غسل أرضية الحجرة، وحكها حكا مبرحا وقد شمرت عن ساعديها ولفت أكمامها فظهرا متآكلين من خلال قندورتها الحريرية حاملة على رأسها تصفيفتها المخروطية الشكل، العنابية اللون."[1]

فأم رشيد مشغولة دائما ويتحدث أيضا عن عمه الحسين يقول: "وهو ينتفض مرتجفا بغتة مبرزا خوفه وأنا على وشك مغادرته ...فيبقى لوحده يعود إلى العزلة التي أخرجته منها مدة ربع ساعة على أقل تقدير، مظهرا ذعره، اضطرابه وقلقه..."[2]

ويتحدث كذلك عن زوجة أبيه اليهودية إذ يقول:"أما اليهودية ...بدأت أفعالها وهي مراهقة كان عشيقها الأول صانع حلاق إيطالي ....ولما تبلغ الخامسة عشرة عاما إذن طبيعي أن تسقط في حبال أغنى رجل في القرية،....وهو لم يكن آنذاك يستقر ولو شهرا واحدا."

ثم يتحدث عن معلمه سي زغواني فيقول:" كان سي زغواني يعلمنا حرف الذال ويقول الذبابة، ثم يعلمنا حرف الضاء ويقول: القاضي"[3]

كانت العمة فاطمة تكره الأوساخ ويمقطها هلواس النظافة وكانت تخاف من السلحفاة الصغيرة، إذ يقول رشيد عنها:"...ترفض العجوز الاقتراب منها وهي كثيرة التطاير منها قائلة أنه الحيوان الوحيد الذي ضمن مأواه في الجنة والدليل على ذلك أنه يحمل معه داره...إليها....وقد كانت لا تترك للجراثيم حضها لتتزايد حتى إذا ما اصطدمت بالسلحفاة من غير قصد، استغفرت وقامت بالكفارة فتصوم يوما كاملا قائلة إنها قادرة على جرنا معها إلى الحبة إذ عرفنا كيف نحسن تعاملها."[4]

1 ينظر: المصدر السابق، ص 146.

2 ينظر: المصدر نفسه، ص 155.

3 ينظر المصدر نفسه، ص 160 – 167.

4 ينظر: المصدر نفسه، ص 187.

يتحدث رشيد عن أبيه الذي صفع أحد الأيام عقيدا من الجيش الفرنسي ،لكنه يتهم أمه بالزنا لأنها عوضا أن تذهب في زيارة إحدى صاحباتها كما زعمت له يقول رشيد:"راحت وبرفقتي إلى أحد المشعوذين من الزنوج أملا منها أن يجد لها حلا فيعود الزوج بعد أن تزوج عليها مرة أولى قمر....ثم مرة ثانية شجرة الدر ...ثم مرة ثالثة هانريات الخياطة اليهودية التي أنجبت له طفلين ليس إلا ،وقد أخزاها وذلها وأهانها وكذب عليها يوم أكد لها أنه كتب عليها عقد الزواج بعدما اعتنقت الإسلام أمام شاهدي عيان، وهو في الواقع لم يتزوج منها ولم يسجل صداقا ولا أي شيء من هذا القبيل وقد توفي الشاهدان"[1].

فقد كان الأب يتجنب رؤية زوجته اليهودية ويتحاشى زياراتها حتى لا تأتيه ولا تطالبه أن يريها وثيقة الزواج وحجة استسلامها المكتوبة لأنه لم يكتب كتابا ولم يسجل زواجا معها البتة".

ويتحدث رشيد عن ما كان يفعله أبوه فيقول:" فقد شوهد وهو يروح ويجيء في الدهاليز، نظراته تتعثر بهذه الصور التي تعرض الجبن وعلب مستحضرات التنظيف ومرق الطماطم، ومستحضرات الزينة...."[2]

يقول رشيد عن مريم:" كانت مريم تعرف الآن أن الكاهن الأكبر كان على حق لأنها كانت ترى المدينة ترتفع فيها المآذن الممشوقة شيئا فشيئا وتغشاها الحانات الأمريكية، بينما كانت الفوضى في تعاظم وتفاقم ...الآن أصبحت تعرف كل شيء!، ولكنها لزمت الصمت إذ لم تجد ما ترد به عن تخيلاتي ولأنها لم تكن قادرة على الإقلاع عن المبالغة ...عن المبالغة في ذلك العذاب..."[3]

يتحدث رشيد عن الساعات الجدرانية التي كانت ملك زوجة أبيه قمر، يقول:" وبحث أبي عن ساعاتي خبير في هذه الأمور، فجيء به من جزيرة مالطا وكان يحسن العربية ماعدا سوء نطقه لحرف الخاء الذي كان يعوضه بحرف الحاء فيقول أحي وهو يريد بها يا أخي![4]، وبدأ صمته يقلق كل أعضاء

1 ينظر: المصدر السابق، ص 191.
2 ينظر: المصدر نفسه، ص 199.
3 ينظر: المصدر نفسه، ص 209.
4 ينظر: المصدر نفسه، ص 213.

العائلة بمن فيهم أبي وزوجته قمر، وكان المالطي يعمل من الفجر إلى ساعة متأخرة من الليل في معالجة الساعات الجدرانية مقحما العدسة المكبرة في محجر عينيه الأيمن (كان الرجل بالإضافة إلى نطقه الرديء للغة العربية، يشكو من عاهة تتمثل في حرية ضخمة يتحمل مسؤوليتها ويتحمل ثقلها بكل صبر وإذعان).."

يقول رشيد :" كان أبي غيورا، حقودا، متعسفا مع كل زوجاته باستثناء شجرة الدر التي قهرته وأرضخته إلى حد أنها كانت لا تلبس الحجاب، بل وتقود السيارة وتدخن علبتين من التبغ التركي الأصفر ،الرفيع ومن نوعية (كامال) في اليوم الواحد..."[1].

ثم يتحدث رشيد عن سكر أخيه فيقول:" وأخي أنا كذلك عندما يسكر ويغلق الخمر كل منافذ وعيه ،كان يقف أمام باب الحديقة الحديدي ويأخذ في الصراخ في البداية غضب أبي ورفض أن يفتح له الباب رغم توسلات أمي، لقد تعود أخي على خلق الضجة ونشر الفضيحة في الحي ،لماذا كان أبي يغلق الباب وقد كان سكرانا لا هم له سوى الذهاب إلى فراشه والنوم..."[2]

عندما كان يسكر أخاه ويدخل إلى المنزل كان رشيد وأمه يأخذان بيده ويقصان عليه الأحاجي فقد كان يخاف الظلام، كانا يطمئنانه.

يتحدث رشيد عن جده:" كالجد يتمتم مفكرا إن العام الماضي كان عاما رهيبا إذا سلط الجراد على قريتنا، كان يقول إن الجراد يمثل الآفة الثامنة فقط ، وكان الأطفال يضعون الغرابل على الجراد المتهاطل".[3]

1 ينظر: المصدر السابق، ص 215.

2 ينظر: المصدر نفسه، ص 221.

3 ينظر: المصدر نفسه، ص 224.

يتحدث رشيد عن أمه فيقول:" كانت تقهقه وتداعب القط وهو يدور في مدار الشمس ويدور:"تعالى حيث الظل وإلا احترقت قوائمك يا أبله...هيا تعالى..." كما كانت في نفس الوقت تلف وتدور حول الجد الضرير وهو حاشم لا يتحرك فيبقى جالسا متربعا مكانه على فروة الخروف فلا ينهض إلا لقضاء صلواته الستة".[1]

فقد كانت الحياة تعود إلى قلب أم رشيد كلما ترك والده القرية وسافر إلى العاصمة أو إلى الخارج (مراكش 1941، 3، 12 حسان) لقضاء شؤونه التجارية فتخلق هي...أمه حركة وضجة من حواليها ولا تتوقف عن الضحك واللعب واستشارة الأطفال ومداعبة الكهل واستفزاز القط فلا تكل ولا تمل.

يتحدث رشيد عن صاحبه فيقول:"كان يصطحبني لا يفارقني كان كئيب الوجه أبكم اللسان ممشوق القد... يسايرني شاهرا ربطة عنق عريضة ذات ألوان صارخة... وكان قد استلفها من أحد أصدقائه ،فلا يتركني ولو لحظة واحدة، إذ أنه كان على علم بأنني تقاضيت نهارها الأجرة الشهرية... ومما أن أضع في يده بضعة أوراق نقدية حتى يتغير الوجه، فيغلق قبضته على الأوراق فجأة متظاهرا بالتلعثم واحمرار الوجه، ثم ينطلق كالصاروخ شاكرا...".[2]

فقد كان صديق رشيد يأخذ من المال، مدعيا أن سوف يقدمه أمه المسكينة لكنه كان يشتري بها باقة زهور يهديها إلى حديثة عشيقاته عهدا.

– العم جلول كان ينقد رشيد عندما يضربه أبوه إذ يقول :"كان تاجرا وصاحب المخزن المقابل لمخزن الأب، العم جلول:هو كذلك:التصدير والاستيراد كان قد فقد ساقه الأيمن بعد أن أصابها الإكال وعوضها بهيكل خشبي، يأتي من بعيد واسمع من بعيد وقع رجله الخشبية على الأرض فينجيني ... ينقذني... لكن داهمته المنية... دخلت إلى المخزن صبيحة إحدى الأيام وجدته مشنوقا وجسمه يتدلى ذهابا وإيابا، يتدلى فوق الخشبة الأفقية التي تسند سقف المخزن ...ولم أبلغ العاشرة بعد"[3].

1 المصدر السابق، ص 226.

2 المصدر نفسه، ص 231.

3 المصدر نفسه، ص 238.

انتحر العم جلول بعد أن أفلس، فقد رفض أب رشيد مساعدته لأنه كان منافسه.

– لقد نسي الأخ فؤاد عائلته عندما هاجر إلى الخارج وتزوج وأنجب ولدا وبنتا واستبدل جواز سفره بجواز البلاد الذي يعيش فيها، ولم يعد لزيارة العائلة ونسي وجودها يقول رشيد :"نحن نخفي الأمر على أمي ونضع رسائل نكتبها بأيدينا في صندوق الرسائل المعلق على البوابة الهرمة...ونقرأها لها ونقول أنه يدرس في معهد الفيزياء النووية تابع لمدينة أمريكية، وهو في الحقيقة يقود الطائرات الضخمة بين القارات ويسكن بإحدى ضواحي باريس وتجنس وخجل من عمله هذه فلم يطأ أرض الوطن منذ العهد الذي سافر فيه وترك البلاد بلا رجعة".

– كانت عمة رشيد لا تحب أحدا في حياتها سوى فؤاد ولا شيئا سوى التنظيف والقيام بالواجبات المنزلية، ولا حيوانا سوى السلحفاة التي كانت تخافها وتهابها وتتبرك بها:" وذلك رغم همجيتها وعدم احترام للطقوس الدينية، لا تصوم ولا تصلي ولا تريد الحج إلى مكة والمدينة، شعوذة منها وتطيرا، تسرق الخبز وتخفيه عن الأعين وتعطيه فؤاد عندما يدخل الفراش"

يضيف رشيد قائلا عن موت عمته:" هي العانس، لماذا لم تتزوج؟ خرجت لأول مرة وهي تقترب من المائة لشراء الزلابية لقمر زوجة أبي الثانية فرفستها اللحافة الكهربائية، وشتت أمعائها وبعثرت أعضائها ،ولم تمن لتوها، رغم قوة الصدمة، بل مكثت تلتوي تحت الحافلة ورجال الإنقاذ ورجال المطافئ يحاولون رفع القاطرة،...ماتت عاقرا فلا تعرف من أمور الدنيا إلا السفاهة والتنظيف والترتيب والتفريك في المنزل."[1]

كانت أمية لكنها تحفظ عددا من الأمثال الرائعة، مختصرات للواقع المصقع والمشقق.

1 ينظر: المصدر السابق، ص 241 – 242.

لقد كانت معلمة الفرنسية تمقت العرب لكنها ماتت كمذا فقد كانت كما يقول رشيد:"لقد كانت تفرض علينا أن نجيء لها بنصيب من السمك لدرس العلوم الطبيعية وكانت تقدم السمك لعزيزها الضيون الماكر، ومهما كانت الحيوانات والنباتات التي كنا ندرسها فقد كانت دائما وأبدا لا تطالبنا بالسمك، وفي يوم من الأيام عقدنا العزم على وضع حد لذلك النزيف المالي الذي كان يحدثه تعهد ذلك القط بالقوة في ميزانية عائلتنا فقررنا أن نضع القطة في كيس وقذفنا به في الهوة".[1]

يتحدث رشيد عن أخيه حميد إذ يقول:" قد استغل الفرصة الذهبية هذه وأظهر قدرته وشطارته على الأعمال اليدوية فنهمك أياما عديدة في إصلاح الثلاجة، وهي خاسرة منذ اللحظة الأولى التي اشتراها فيا أبي، ثم انفرد بالمذياع وقد كان على أحسن حال فأخرج أمعاءه وأحشاءه وركبه من جديد وطلى جهازه بالشمع فأصبح براقا لماعا واكتسب صوتا صافيا لم نكن لنعرفه من ذي قبل"

فقد قرر أن يعطل كل الساعات الجدارية التي ورثتها قمر من أحد أسلافها، فأخذ يعطل الساعة بعد الأخرى وينهمك في تصليحها مدة طويلة من الزمن.

يقول رشيد :"أما أنا فمازلت أصعد كل صباح إلى أعلى الشجرة بمفردي لا يصطحبني إلا أخي الأكبر الذي كان يغطيني بمعطفه ويفتح من فوق رأسي مظلة هائلة كان المطر يقرع قماشها الحريري"[2]

فقد كان أخوه الكبير يهتم به كثيرا لكنه كان يشتت أجزاء كبده بين حانة وأخرى ويغطيني بمعطفه الوبري ومظلته الحريرية أما حميد فكان يجهد نفسه في ترميم الدار"

ثم يتكلم عن مرض أبيه فيقول:" ...ثم ينقطع عن الكلام وتظهر على وجهه سمات مرض عضال سميته مرض الخجل ،ولم يخرج أحد في تلك الفترة من الدار وانقطعت أسفار أبي طيلة تلك المدة بل قعد جميع أفراد العائلة في أماكنهم والأبواب والنوافذ مغلقة".[3]

1 المصدر السابق، ص 249.

2 ينظر: المصدر نفسه، ص 256 – 257.

3 المصدر نفسه، ص 261.

فلم يعد أبوه يرسل البطاقات البريدية من كل مدن العالم،يتكلم رشيد عن محافظة أم لورشة الخياطة :"إذ قررت نسيان حزنها، فقد راحت تنهمك في العمل فتكرس وقتها كله للعمل في ورشة الخياطة فحافظت على هذا المكان المنعزل،الغريب المكتظة أجواؤه وبرائحة الكريب الصيني الذي يمكن أن يشمه كل من دخل المنزل"[1].

1 المصدر السابق، ص 270.

المبحث الثالث: المعطى الثقافي:

يتحدث رشيد عن أمه فيقول :"كانت أمي تغني ترنيمة بربرية من منطقة أوراس وهكذا وكأنها تفتح كل نوافذ السعادة اليومية على مصراعيها..."[1]

ويقول أن هانريات غزلان بدلت هانريات باسم عربي :حسيبة ويضيف قائلا يوم تشييع جنازة أخيه عما كان يفعله الكبار "ومرة أخرى كان أولئك الكبار يفركون سبحاتهم حبة حبة بين أصابعهم السمينة وبسرعة جنونية تبعث في الرأس الدوار وتقنعني بأنهم كهنة ذلك أنهم كثيرا ما عبروا عن يقينهم بأن أخي عبد الله سيموت في القريب العاجل لا محالة! ".

ولكنه كفّن من قماش الغياب وسمر غطاء التابوت بالمسامير الغليظة دون أن تراه الأم للمرة الأخيرة ولكنها أرغمتهم على وضع إكليل صغير من مادة الطلق والبلق على النعش المصنوع من خشب البلوط والمشمع بالخاتم القمرقي الأحمر، أخذوه إلى المقبرة محمولا على النعش الأرجل الأربعة واللون الأصفر اللماع والزخرفات المسمارية والصفيحات المعدنية، يتلون القرآن.

يتحدث عن جدته لأبيه ذات الشخصية الرهيبة، قد فرضت الجدة وهي فراش الاحتضار أن تصور بوقارها وأجمل جلبابها الحريري القطيفي الفاقع الإحمرار:"صورة جدتي والشرسة: كانت قد أمرت أن تؤخذ لها صورة أثناء احتضارها تخليدا لهذا الحدث العظيم."[2]

يتحدث عن أبيه الذي كان يخربش على ظهر البطاقة اسم المكان والتاريخ واسمه هو ،بعد أن يكتب العنوان على الجهة الأخرى من البطاقة المخصصة لهذا الغرض، كانت أمه كما يقول:" تجمع كل هذه البطاقات الآتية من كل أماكن العالم ومن جميع القارات في صندوق قديم، وإن كان لا يخفى عليها أن الزوجات الأخريات تصل إليهن أيضا مثل هذه البطاقات بما فيها من المساجد والقصور والصحاري والجبال الجليدية والعاهرات المتقنعات بلباس فولكلوري أو سلالي"[3]

---

1 المصدر السابق، ص 10.

2 ينظر: المصدر نفسه، ص 17 – 27.

3 المصدر نفسه، ص 29.

يتحدث عن أبيه الذي بدأ يحضر دروس أكبر أئمة جامعة الزيتونة رغم إلمامه لعلوم اللغة والفقه والتاريخ إذ أصبحت مقهى الجزائر مركز الوطنيين المغاربة وبؤرة تشويش دائم ومتواصل ضد السلطة الفرنسية الاستعمارية،و كان كذلك يتاجر ويكتب القصائد ويحرر لنفسه المقالات الفلسفية ويحضر بعض دروس أشرف أئمة الزيتونة....

يتحدث كذلك رشيد عن زمرة المدمنين إذ يقول:" يحتد النقاش حول موهبة المغنين فكان منهم من يدافع عن أم كلثوم أو اسمهان أو غيرهم من المطربين والمطربات الشرقيين ومنهم من يتذوق الحاج محمد العنقة أو الحاجة الحمداوية أو غيرهم من المطربين والمطربات المغاربة".[1]

يقول عن معلمه المداح الذي كان أعمى شيخا ضريرا :"وكان محشوا صيفا شتاءا في برنس رث النسيج وفاتر اللون...ينتعل حذاءا عسكريا قديما،..كان دائما متربعا مغنيا بصوت رائع مبحاح تتسرب إليه من حين إلى آخر رقاقات أزيزية خارقة فلا تزعجه الرياح الرملية التي تجفف المناخير...."[2]

إذ كان يتلفظ المداح ببيت غزلي أو شبقي أو إباحي حتى تراهم يترنمون ويترنحون من فرط ما يستعمون وكان يخشى نكهة الكافرين والسياح ورافضي صوم رمضان.

وقد كان الجمهور المتجمهر متأهبين للفرار عند أي خطر طارئ (خاصة وهم يخافون من شراسة العساكر الأجانب وتعصب إخوان الصفاء) "يمررون الزجاجة الإلهليمية خلسة، شار بين رحيق الفردوس مباشرة، واضعين أفواههم تحت عنق القنينة إناء لا يمكنه إرواؤه البتة، متسترين ببرانسهم العريضة(نتركه لكم رمضانكم هذا الذي به تتبججون يا كرام"[3]

يتحدث رشيد عن ماريا :"أنها انخرطت في الحزب السياسة أولا التطاحن الطبقي قبل التطاحن النفساني...."[4]

1 المصدر السابق، ص 51.
2 المصدر نفسه، ص 59.
3 المصدر نفسه، ص 60.
4 المصدر نفسه، ص 68.

كانت تقول ماريا لرشيد:" عندما أراك تكتب تتصاعد إلى منخري رائحة المستنقعات المعشوبشبة (مثلها مثل تلك المستنقعات التي جففها الزنج بعد أن قرر متفقد مياه دجلة سنة 899 وبادر إلى إنشاء ثلاثين حاجزا حتى يضبط مقدار اندفاع النهرين أي دجلة والفرات وتفرعاتها التي لا يمكن إحصائها ،بمستنقعاتها التي لا تحصى وحيث كان العبيد السود المستجلبين من السودان وزانزبار وبلاد النوبة يكدون ليلا نهارا يرمدون أطراف النهرين، يبسطونه ولم ينضب مصب النهرين بعد فمات الكثير من العبيد، منهم من جرفتهم المياه ومنهم من أصيب بحمى الملاريا (ألف ليلة وليلة) ومنهم من توفي تحت سطورة"[1].

يتحدث عن المصور والصبي الهزيل اللذان جاء لتصوير أفراد العائلة فيقول رشيد:" فيأتي هذا الماكر برفقة صبي هزيل رافعا فوق رأسه لوحة كبيرة رسمت عليها رسوم أسطوانية تمثل الفردوس بغاباته ورياضة وجناته الفاتنة، وقد خط اسم الله بخط كوفي جميل...كانداهية إذ اعتاد على تابت صندوق محشو ملابس لما أحيط به علما بولوع الأولاد بالتقنع التنكو في أزياء غريبة الأشكال مختلفة العهود، فيصبح هذا الطفل مملوكا من مماليك الباب العالي في عهد الحكم العثماني والآخر يتقمص بزي أحد المظليين المفهّد القماش، وذلك يتنكر في لباس شارلو حاملا عكازه المشهور وقبعته العريضة، وهذا الآخر يختار مظهر المهرج ..."[2]

يتحدث كذلك رشيد عن لطيف فيقول:" أما لطيف فيشعل آلة الأسطوانات فتعم الموسيقى المنزل كله ويصبح المطر عبارة عن صدى المتواليات الموسيقية المعزوفة على القانون أو البيان تصعد الموسيقى فتمحو كل الروائح..."[3].

1 المصدر السابق، ص 70.

2 المصدر نفسه، ص 89.

3 المصدر نفسه، ص 109.

فقد كان رشيد يكتب وكانت ماريا كما يقول:"يتصفح بعض كتبي التي لا تفارقني قط ومنها كتاب ألف ليلة وليلة وديوان المتنبي فكانت تقول: كان الفرات يندفع اندفاعا خطيرا..وكانت أيضا دجلة، وما إن يتلاقيان بالبصرة حتى يحدثان طوفانات لا ترحم أحدا، أتريد أمثلة على ذلك؟ حدثت خمس منها ما بين القرن الأول من التقويم الإسلامي والقرن السادس منه، ثورة في كل قرن هذا ما وقع بالذات ؟اسمع وسجل وأنت بصدد كتابة سيناريو لوضع فيلم مقتبس من ألف ليلة وليلة"[1]

كانت ماريا تحكي عن الديكتاتوريين والمستبدين والقراصنة وعن التمردات (تمرد السندباد عزب فارس ،وتمرد المقنع في خراسان وتمرد بابك بالعراق، وتمرد الزنج في بلاد ما بين النهرين وتمرد القرامطة في أرجاء الإمبراطورية الإسلامية ،الحديث عن الجنس في كل صفحة من صفحات ألف ليلة وليلة ،وكذلك روت له عن الأمويون والعباسيون تحدثت عن المتنبي وعبقريته الشاعرية وكذلك عن عدم وجود العلماء والفلاسفة والشعراء في ألف ليلة وليلة.

ثم تحدث عن حفل التختين إذ قال:" فيباغث الأولاد، إذا انقض الدور عليهم انقضاضا عند مشاهدتهم انبجاس الدم ينطلق وسماعهم الصيحة الرهيبة تتصاعد فيسطر إذاك الذعر عليهم وتنتابهم الرجفة ويصيبهم من فرط توتر الأعصاب....يدفعون بها في صرخة مدوية كالرعد، سريعة كالبرق وقد راحوا يرددون الأناشيد الدينية ..."[2].

تحدث رشيد عن وفاة أخيه عبد الله، وعن حزن أمه فقد قال:" توفي أخي عبد الله فلبست أمي اللباس الأسود نهائيا وهي لم تترك حدادها، .... لم يكن هذا التقليد من تقاليدنا ولا من أعرافنا هكذا قررت هي... لم تعد تزين وجهها ولا تفصل فساتينها..."[3]

1 المصدر السابق، ص 110.

2 المصدر نفسه، ص 165.

3 المصدر نفسه، ص 168.

ويضيف رشيد قائلا عن أمه:"....وقرع الأواني يأتينا من المطبخ مع روائح الكسكسي وهو يفور في الكسكاس وتأتي غوغاء لا يمكن تحديد مصدرها، ولا من أية غرفة بالضبط آتية هي،ونغمات الأصوات تدندن، القرآن والذكر"[1].

تحدث رشيد عن اتهام أبيه لأمه بالزنا إذ يقول:" اتهمها بالزنا لأنها كانت تتردد على الدجالين والمشعوذين والمرابطين والأولياء الضالين والسحرة، وتطالبهم من خلال حروزهم وطلاسيمهم وكتاباتهم وخطوطهم وأرقامهم وأفلاكهم وأبراجهم وإشاراتهم ،تطالبهم إذن بعودة الزوج الضال..."[2]

فقد كانت أم رشيد لا تسأم ظنا منها أن الحروز والكتبات والخطوط والطلاسيم سوف تجبر، في نهاية الأمر على الرجوع إليها وإلى أولادها ،قال رشيد عن المحتضرين إذ يقول:" كانا موتانا يتحدون الزمان والمكان بفضل زهرة الخشاش التي كنا ننشقهم رائحتها قبل أن نغطيهم – نظرا لحرارة الطقس الشديدة- بالجير المحرق فلا يبقى منهم أي أثر"[3]

ذكر رحلة ابن بطوطة :" وشأن قوم بايو الآتي لعجيب، وأمرهم لغريب فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه وإنما إلى أمه أو خاله ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنته وذلك شيء ما رأيته إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود...وإنما هؤلاء فنساؤهم لا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهم على الصلوات وهن مسلمات والنساء يكون لهن الأصدقاء والأصحاب والعشاق من الرجال، ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك بل ويكرمه..."[4].

1 المصدر السابق، ص 186.
2 المصدر نفسه، ص 190.
3 المصدر نفسه، ص 205.
4 المصدر نفسه، ص 212.

يتحدث رشيد عن الكهل الضرير فيقول:" أما الكهل الضرير فما كان يبالي بهذه التفاهات كان يحب أكل الفول والمكوث تحت الشمس ساعات طوال لا يتحرك إلا إذا حان وقت الوضوء"

ويضيف رشيد، قال الكهل الأعمى:" آفة الجراد هي القرح الثامن حسب طقوس الأسلاف..."

لن تنسى تلك السنة التي هاج الأطفال فيها فراحوا يتراكضون وراء الحشرات بدون ما جدوى ويقول عن جده :"أما الجد فقد كان يترقب تساقط الغسق وآذان المغرب ليجن جنونه ويبتهل ويصلي الركعات الإضافية ويدخل في المتاهات التصوفية (علمني الكثير من كتب بن عربي وكان يحفظ له الأسفار بأكملها)"

يقول كذلك عن أمه:" كانت تروض الدرر والأنغار، وتعلمها الموسيقة بسنفونية الصباح وتعاتبها إذا ما راحت تغالي في بثها أمواجا من الضجيج في الأثير في ساعة الاستيقاظ المبكر"[1]

يتحدث رشيد عن معلمه سي الزغواني فيقول عنه:" كان معلمي سي الزغواني مولعا بالجاحظ فيردد علينا قصة الذبابة والقاضي ويمثل أمامنا أقساطا منها"[2]

تحدث رشيد بوجدرة عن عائلة رشيد وما كانت تقوم به من عادات وتقاليد،منها عادات الغناء، وضع إكليل الجبل على التابوت ،تصفح الكتب، حفل التختين، ارتداء اللباس الأسود في حالة الحداد، وكذلك الذهاب إلى المشعوذين والتردد على الدجالين.

1 المصدر السابق، ص 225 – 229.

2 المصدر نفسه، ص 231.

الخاتمة

خاتمة

انتهى هذا البحث الذي يعتبر مقاربة نظرية / تطبيقية إلى النتائج التالية:

– إن الاختلاف بين الأنا والآخر لا يقوم إلا بإدراك معناه وحق الآخر في الاختلاف وهذا الأخير يمة سجية تكاد تكون ناموسا إن لم يكن حقيقة مطلقة. فالاعتراف بالاختلاف ضرورة وسنة من سنن الوجود غايته التعارف والتعايش والحوار فيغدو اختلافا يرفد الوجود البشري بالتنوع والرؤى المشاكلة.

– إن الآخر يتضمن مجموعة من الإنجازات والمكاسب نحن بحاجة إليه لتطوير راهننا ولا نمر عبر تدميره.

– ينبغي أن ننظر إلى إشكالية الأنا والآخر وفق أن الأنا ليس خيرا مطلقا، كما أن الآخر لا يشكل الشر المطلق.

– إن مفهوم الأنا والآخر، هو في حقيقة الأمر علاقة تربط بين الذات والغير أو العالم الخارجي، إن بشكل مباشر وواع أو غير ذلك، هذه العلاقة طرحت كإشكالية مند أن وعى الإنسان بأناه.

– تعتبر ثنائية الأنا والآخر من أهم المباحث الفكرية والفلسفية التي شغلت حيزا لا بأس به من المنظومة الفكرية الإنسانية مند القدم، بحيث لا يمكن إدراك الآخر إلا بإدراك الذات التي تساهم بشكل أو بآخر في التعرف على ذاتها انطلاقا من هذا الآخر.

لقد عني الأدباء والروائيون خاصة بهذه الثنائية والجدل القائم بينهما، فراحوا يبدعون في أعمالهم، ويصورون العلاقة القائمة بين "الذات والآخر" كل بطريقته وبحسب ما يحمله من أفكار وإيديولوجيات، فأضافوا إلى الأدب العربي أعمالا في قمة الروعة والإبداع.

– احتل الآخر مكانا بارزا في رواية "المرث" حرصا من الأنا على معرفة ذاتها التي لا تمر إلا بمعرفة الآخر والكشف عن حدوده ومعرفة هوسها. فالآخر عمّق فهمها لنفسها، حين أخذت جزءا مهما من فكرته عنها من المرجعية التي يمثلها لها، وسعت إلى تطوير ذاتها.

خاتمة

– صورة الذات التي يعلن عن حضورها النص هي ذات جماعية تتجاوز هواجس الأنا الفردية وتداعياتها الخاصة إلى هموم النحن وتطلعاتها الأصيلة، وهي جماعة وإن أتت بصيغة المفرد.

– استطاعت الأنا أن تتبث وجودها حتى من خلال موقفها العام من الأطر المجردة (الموت، الزمان، المكان)، ومن الهموم الفكرية التي شغلتها في صراعها مع الآخر عبر ثنائية الحضور / الغياب التي تبرز بوضوح الجدل بين الأنا والآخر.

– طرحت الرواية إشكاليات فلسفية ونفسية تعزى إلى الأنا.

– يتحدث "رشيد بوجدرة" عن الشخصية الجزائرية، وقد تعددت الشخصيات وقد أجرت الشخصيات حواراتها في فضاءات وفرت على تفاوت درجاتها فرصة للاجتماع والتقارب وبقدر ما كانت تحيل على أماكن واقعية حقيقية بقدر ما تم استعمالها وتوظيفها بطريقة متخيلة ارتبطت برؤى الشخوص الفكرية لتنبئ في النهاية باتساع الشعور لديها، والاستعداد والقدرة على التواصل.

– نلاحظ تعدد الأزمنة والفضاءات بتعدد الشخصيات.

– تعدد الأمكنة ابتداء من الفضاء الجغرافي الخارجي إلى الأمكنة المتعلقة بالهوية هوية الأنا والآخر.

– يحرص رشيد بوجدرة على وصف العالم الذي تدور فيه أحداث روايته بدقة تجعل القارئ واحدا من شخوص الرواية فهو يصف المكان والأشخاص والمباني والأزياء وأسلوب الكلام والأطعمة...

ولقد غاص الكاتب في أعماق الوصف ليصف لنا أدق الأشياء في هذه الرواية أهم عنصر ينهض عليها بناؤها الفني، وأن الرواية تنفتح على تعدد القراءات،

هذه بعض النتائج أو الملاحظات التي أمكن التوصل إليها، وإنا على ثقة أن عملي هذا لم يحقق كل الرجاء المعقود إليه ولكن عزائي أنني ربما فتحت نافذة على عالم رشيد بوجدرة الروائي الذي يستحق وقفات أخرى لما تحمله الرواية من قضايا لا زالت في اعتقادي مجالا رحبا لمن أراد أن يبحث في أعمال رشيد، والله الموفق لكل سعي.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

– القرآن الكريم:

3- المعاجم:

29. إبراهيم مصطفى أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، "المعجم الوسيط"، تح: مجمع اللغة العربية، مصر، د.ط، د.ت.

30. ابن منظور، "لسان العرب"، مج1، دار الحديث، القاهرة، د.ط، 2006، "مادة أنا".

31. أحمد أبو حاقة، "معجم النفائس الوسيط"، دار النفائس، لبنان، د.ط، د.ت.

32. أحمد النقشندي الخالدي، "معجم الكلمات الصوفية"، تح: أديب نصر الدين، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان، ط1، 1997.

33. أسعد رزوق، موسوعة علم النفس، مراجعة عبد الله الدايم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط2، 1979.

34. بسام بركة، "معجم اللسانية فرنسي عربي"، منشورات جروس، باريس، ط1، 1985.

35. جان لابلانش، ف.ج.ب بونتاليس، "معجم مصطلحات التحليل النفسي"، تر: مصطفى حجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 1985، "مادة أنا".

36. جميل صليبا، "المعجم الفلسفي"، دار الكتاب اللبناني، لبنان، د.ط، د.ت.

37. الجوهري، "معجم الصحاح"، اعتنى به خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، لبنان، ط3، 2003.

38. الخليل بن أحمد الفراهيدي، "كتاب العين"، ج1، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2007.

39. روجي البعلبكي، "المورد الثلاثي"، قاموس ثلاثي الأبعاد، عربي إنجليزي فرنسي، دار العلم للملايين، لبنان، ط3، 2005.

40. سهيل إدريس، "المنهل قاموس فرنسي عربي"، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط34، 2005.

41. الطاهر قائد، "اصطلاحات فلسفية"، عربي فرنسي، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط2، 1993.

42. عبد الرحمان بدوي، "موسوعة الفلسفة"، ج1، المؤسسة العربية، مصر، ط1، 1984 (مادة أنا).

43. عبد القادر بلعيد، هشام حسان، أحمد العائد "المجيب"، فرنسي عربي معجم وظيفي لغوي، دار اليمامة، الصين، ط1، 2007.

44. عبد المنعم حنفي "موسوعة علم النفس"، ج2، دار أسامة، المشرق العربي، مكتبة مديولي، ط1، 1978.

45. عطوف محمد ياسين، "قاموس مصطلحات علم النفس"، عربي إنجليزي فرنسي، مؤسسة نوفل، لبنان، ط1، 1981.

46. لويس معلوف، "المنجد في اللغة والإعلام"، دار المشرق والمكتبة الشرقية، لبنان، ط31، 1991، مادة (آخر، آدم).

47. مجمع اللغة العربية، "المعجم الفلسفي"، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، د.ط، 1983.

48. ماكدونا لادلال، "قاموس مصطلحات علم النفس"، تر: يوسف ميخائيل أسعد، دار النهضة العربية، مصر، د.ط، 1971.

49. منير البعلبكي، "المورد" قاموس إنجليزي – عربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط41، 2007.

50. النايف القيسي، "المعجم التربوي وعلم النفس"، دار أسامة، المشرق العربي، دار المشرق الثقافي، الأردن، ط1، 2010.

1- المصادر والمراجع:

1- المصادر:

1. أحلام مستغانمي "عابر سبيل"، منشورات ANEP، الجزائر، د.ط، 2004.

2. توفيق الحكيم، "عصفور من الشرق"، مكتبة الإسكندرية، د.ط، د.ت.

3. رشيد بوجدرة، "المرث"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1984.

4. سهيل إدريس، "الحي اللاتيني"، دار الآداب، بيروت، ط8، 1981.

5. الطاهر وطار، "اللاز"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1983.

6. طه حسين، "أديب"، دار المعارف، مصر، د.ط، د.ت.

7. الطيب صالح، "موسم الهجرة إلى الشمال"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دار الجنوب للنشر، تونس، د.ط، 1979.

8. عرعار محمد العالي، "مالا تذروه الرياح"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1972.

9. يحي حقي، قنديل أم هاشم، دار المعارف، القاهرة، د.ط، 1954.

2- المراجع والكتب المترجمة::

10. بن سالم حميش، "في معرفة الآخر"، دار الحوار، سوريا، ط2، 2003.

51. بول ريكور: "فلسفة الإرادة، الإنسان الخطاء"، تر: عدنان نجيب الدين، المركز الثقافي العربي، لبنان، د.ط، 2003.

52. جون بول سارتر، "الوجود والعدم"، تر: عبد الرحمن بدوي، دار العودة، لبنان، ط3، د.ت.

11. سماح خالد زهران، "كيف تفهم نفسك وتفهم الآخر"، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 2004.

12. السيد عمر، "الأنا والآخر من منظور قرآني"، تح: أبو الفضل ونادية محمود مصطفى، دار الفكر، سوريا، ط1، 2008.

53. سيغموند فرويد، "الأنا والهو"، إشراف: محمد عثمان نجاتي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط4، 1998.

13. صلاح صالح، "سرد الآخر، الأنا والآخر عبر اللغة السردية"، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2003.

14. عباس يوسف الحداد، "الأنا في الشعر الصوفي لابن الفارض أنموذجا"، دار الحوار، سوريا، ط2، 2009.

15. عبد الرحمن بدوي، "دراسات في الفلسفة الوجودية"، النهضة المصرية، مصر، ط2، 1966.

16. عبد المجيدحنون "صورة الفرنسي في الرواية المصرية"، د.م.ج، الجزائر، د.ط، 1986.

17. عبود شلتاغ، "الأدب والصراع الحضاري"، دار المعرفة، دمشق، د.ط، د.ت.

18. علي حرب، "نقد الحقيقة"، المركز الثقافي الغربي، المغرب، ط3، 2002.

19. فاطمة موسى، "في الرواية العربية المعاصرة"، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، 1972.

20. قحطان بن أحمد الظاهر، "مفهوم الذات بين النظرية والتطبيق"، دار وائل للنشر والتوزيع، ط1، 2004.

21. محمد زفزاف، "المرأة والوردة"، منشورات فاليري، بيروت، ط1، 1972.

22. محمد علي التهانوي، "موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم"، ج1، مراجعة: رفيق العجم، تح:علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية، عبد الله الخالدي، تر: ريناقي، مكتبة لبنان، ط1، 1996.

23. محمد نجيب التلاوي، "الذات والمهماز"، دراسة التقاطب في صراع روايات المواجهة الحضارية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ط، 1998.

24. محمود رجب، "المرأة والفلسفة"، حوليات كلية الآداب، الحولية الثانية، جامعة الكويت، د.ط، 1981.

25. مصطفى سويف، "الأسس النفسية للإبداع الفني"، الشعر خاصة، دار المعارف، مصر، د.ط، 1959.

26. ميخائيل إبراهيم أسعد،"شخصيتي كيف أعرفها؟"، دار الآفاق الجديدة، لبنان، ط3، 1987.

54. ميشال فوكو، "الانهمام بالذات"، تر: جورج أبو صالح، مركز الانماء العربي، لبنان، د.ط، 1992.

27. نجيب البلدي، "ديكارث"، سلسلة نوابغ الفكر العربي، دار المعارف، مصر، ط2، 1968.

55. نعوم تشومسكي، "النزعة الإنسانية العسكرية الجديدة"، تر: أيمن حنا حداد، دار الآداب، بيروت، د.ط، 2001.

28. واسيني الأعرج، "اتجاهات الرواية العربية في الجزائر"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1986.

3- الأطروحات:

29. شريف بموسى عبد القادر، "أشكال الصراع الحضاري في الرواية العربية، مقاربة نفسية"، إشراف: محمد مرتاض، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الأدب العربي الحديث، بجامعة تلمسان، الجزائر، 2004.

30. عبد الله أوغرب، "الذات والآخر الغربي" في روايتي "الغربة" و "اليتيم"، لعبد الله العروي، تحت إشراف: بموسى عبد القادر، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، في الأدب الحديث، تلمسان ، 2011 - 2012.

4- المواقع الإلكترونية:

31. أحمد المدني: "الرواية المغربية، وضع الهوية في العلاقة مع الآخر"، مقال: www.qamat.org/909vf/showthread.phpt:2493

32. جميل حمداوي، صور الأنا والآخر في الخطاب الروائي الغربي، 26 يونيو 2010.
AL mothqaf.com/index.php.iqadaya.2009/15803.html.

33. خالد محمد فرح: "جدل الأنا والآخر في أعمال الطيب صالح"، (مقال)، الأربعاء 30 سبتمبر 2009، في سودانيل، www.SUDARESS.com/SUDANILE/6017

34. سليم بثقة، "التمثيل الاستعماري أو البحث عن البديل التخييلي في صراع الأنا مع الآخر"، 2009/12/12.
www.adabasham/show.php?.

35. الآخرية في رواية: "نوار اللوز" لواسيني الأعرج، "مقال".

36. إشكالية: "الأنا والآخر المستعمر"، جماليات عنوان كتاب "الأمير".

37. دروس تعليم الفلسفة، معنى الأنا حسب لالاند/File:///F:/%C2%Ao/html:

38. E samuel philips huntington – wikipedia.htm

الفهرس

الفهرس

البسملة

إهداء

شكر وامتنان

الفهرس

مقدمة.....أ

مدخل: الأنا والآخر بين المفهومين اللغوي والاصطلاحي.....1

أولا: الخلفية اللغوية للمصطلحين "الأنا والآخر".....1

1- عند العرب.....1

أ- الأنا.....1

ب- الآخر.....2

2- عند الغرب.....4

أ- الأنا.....4

ب- الآخر.....5

ثانيا: مفهوم الأنا والآخر في الفلسفة والفكر العربي.....6

1- الخلفية الفكرية لمصطلح الأنا.....6

أ- الأنا من المنظور الفلسفي.....6

ب- الأنا من المنظور الصوفي.....7

ج- من المنظور النفسي: "الذات / SELF في ترجمتها الإنجليزية".....8

د- من المنظور الاجتماعي.....9

هـ- من المنظور القرآني.....10

2- الخلفية الفكرية لمصطلح الآخر.....11

أ- الآخر من المنظور الفلسفي.....11

الفهرس

ب- الآخر من المنظور القرآني.....12

ج- ونجد كذلك الأنا والآخر عبر اللغة.....13

الفصل الأول: تجليات الأنا والآخر في الرواية العربية..... 15

1/ عصفور من الشرق.....19

2/ قدر يلهو.....22

3/ قنديل أم هاشم.....22

4/ رواية الحي اللاتيني.....25

5/ رواية موسم الهجرة إلى الشمال.....26

6/ رواية أديب.....28

الفصل الثاني :صورة الأنا عند رشيد بوجدرة من خلال رواية المرث.....40

ملخص الرواية.....41

المبحث الأول: الصورة النفسية.....42

المبحث الثاني: الصورة الاجتماعية.....52

المبحث الثالث :المعطى الثقافي للأنا.....58

الفصل الثالث:الآخر في رواية المرث.....61

المبحث الأول: الصورة النفسية.....61

المبحث الثاني: الصورة الاجتماعية.....64

المبحث الثالث: المعطى الثقافي.....76

خاتمة.....82

قائمة المراجع.....84

ملخص المذكرة

ملخص المذكرة

إن رحلة البحث التي خضناها حول صورة الأنا والآخر في رواية المرث والتي جعلتنا نقف عند الكثير من علامات الاستفهام، قادتنا إلى حقيقة كون تجربته الإبداعية في هذا المضمار لا تخرج عن الطبيعة الإنسانية بوجه عام والتي تفترض وجود كيانين موضوعيين مستقلين هما الأنا والآخر ولا يمكن للأنا أن تكتشف نفسها أو تحقق كينونتها بمعزل عن الآخر، فهو يشكل عنصرا مهما في صميم وجودها.

إن صورة الأنا والآخر في رواية المرث لرشيد بوجدرة صورة مركبة ومتطورة وليست صورة بسيطة ساكنة، ذلك أن الآخر لا يمثل معطى مسلما وإنما هو كيان مختلف يصدر عن الغيرية فقد يكون شخصا أو مجموعة من الناس أو مجتمعا أو حتى فكرة وكما أن الآخر متعدد فإن صورة الأنا تنمو وفق تطور صورته والسبب في ذلك هو طبيعة الصورة في حد ذاتها التي تتصف بالديناميكية والمرونة. فالشخص يتغير دائما، لأنه يتطور مع نمط الحياة.

Résumé

Le voyage de constater que nous nous sommes battus sur l'image de l'ego et l'autre dans le roman Almrt et qui nous a fait se lever quand un grand nombre de points d'interrogation, nous a conduit au fait que l'expérience créative dans ce domaine ne sort pas de la nature humaine en général, et qui suppose l'existence de deux entités indépendantes objectives sont l'ego et l'autre ne puis-je être se découvrir, ou vérifier les perturbations dans l'isolement des autres, il est un élément important au cœur de son existence.

L'image de l'ego et l'autre dans le roman Almrt à Rachid Boudjedra image composite et sophistiquée et non pas une simple image statique, de sorte que l'autre ne soit pas un donné pour acquis, mais il est une autre question pour l'entité hétérosexuelle peut être une personne ou un groupe de personnes ou d'une communauté, ou même l'idée et que l'autre multi-image de l'ego croître en fonction de l'évolution de l'image et la raison en est que la nature de l'image elle-même, qui se caractérise par le dynamisme et la flexibilité. Une personne est toujours en évolution, il évolue avec le mode de vie.

Summary

The journey to find that we fought on the image of the ego and the other in the novel Almrt and that made us stand up when a lot of question marks, led us to the fact that creative experience in this area does not get out of human nature in general, and that presupposes the existence of two entities objective independents are the ego and the other nor can I be discover themselves, or check disruption in isolation from the others, it is an important element at the core of its existence.

The image of the ego and the other in the novel Almrt to Rachid Boudjedra composite image and sophisticated and not a simple image static, so that the other is not a given for granted but it is a different issue for heterosexual entity may be a person or a group of people or a community, or even the idea and also that the other multi-the image of the ego grow according to the evolution of the image and the reason for that is the nature of the image itself, which is characterized by dynamism and flexibility. A person is always changing, it is evolving with lifestyle.